ذكريات على

شواطئ البحر الأسود

الطبعة الثانية

ذكريات على
شواطئ البحر الأسود

الطبعة الثانية

الدكتور

نصير الحسيني

2020

الترميز الدولي*

ISBN: 978-9922-9187-4-7

ذكريات على
شواطئ البحر الأسود

الطبعة الثانية

الدكتور نصير الحسيني

الطباعة: دار الفرات للثقافة والإعلام – بابل – العراق

ali.abas505@yahoo.com / 07707311570

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٤٦٦) لسنة ٢٠١٩م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon

الإهداء

إلى ....

صديقي الدكتور خلف

محبةً

وتقديراً

واعتزازاً

د.نصير الحسيني / ٢٠١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

[١]

نظـر الـيّ بعيـنين غـربيتين اثنـاء أحـد لقاءاتنـا المتكـررة، الـتي تجمعنـا في الغربـة، ومـن ثـم تحولـت الى صـداقة دائمـة، وكـادت نظرتـه تحمـل نوعـاً مـن الريبـة وكأنها مغطاة بستائر من الذكريات الممزوجة بالألم، والمرطبـة بالغربـة، ووجهـه أتعبـه كثـرة المـارين بأسـئلة متنوعـة عـبر نافذتيـه المتعبـتين، وجسـد أرهقـه المـرض والتفكير والقلق، وأيام تجري الى غير مستقر.

كان يتفحصني بنظراتٍ متحيرة يود لو أكتشفها فمرةً تبدو ذات ودٍ، ومرة أخرى متهمة، بعد أن رأى كثيراً من الثعالب البشرية، وهي تحاول أن تنهش ما تبقى من رداء الضحية، متجاوزاً كل العوارض وطرح عليّ سؤالاً ممزوجاً ببعض القلق الذي عادةً ما يسري داخل جسده، وكان السؤال استكشافياً مفاجئاً، لا ينتظر منه إجابة محددة أو مستعجلة ولربما كان للمجاملة، أريد منك أن تكتب قصة حياتي.... وسرعان ما توقف بطريقة

مراوغة وكأنه كشف عن شيء مستورٍ، أو كأنه فضح نفسه، وسرعان ما غير سؤاله الى اخر لماذا لا تكتب عن دراستك في الاتحاد السوفيتي؟ ثم سكت محاولاً تغيير الموضوع بعد أن ارتشف شاياً ممزوجاً بمجموعة من التكهنات، وأسئلة حيرى تحاول أن تجد مكاناً أمناً تحط عليه، حاورت نفسي حول شخصية صديقي وأنا أتساءل عن الأسباب أو المخفيات التي يحتفظ بها صديقي التي تصلح للكتابة لغيرنا تستحق القراءة، وبين متشكك وتائه هكذا بدأت الاحداث تسري بهذا الشكل محاولين معاً إيجاد شكل مناسب يؤطر الاحداث على مدى عدة عقود دون الإساءة لاحدٍ ولعل في ذلك شيء مفيد لغيرنا أو فيه شيء من الفائدة والمتعة وأنا على يقين تام أن حياة كل شخص هي رواية أو قصة طويلة فيها من الاحداث تستحق أن تكتب أو تروى، وعلى كل حال فأنها محاولة لتأطير الاحداث والآراء على نحو من الانحاء.

[٢]

خلال لقاءاتنا المتكررة الأخيرة التي استمرت عدة أعوام، ولكنها تركزت بعد اقتراح كتابة وسرد الاحداث خلال عشرة أيام متصلة ابتدأت من ١/ ٥/ ٢٠١٩ م ولغاية ١٣/ ٥/ ٢٠١٩م محاولين تأطير الاحداث على نحو ما، بطريقة استذكاريه معتمدين على الذاكرة الشخصية نروي بعضاً من أيامنا الماضية، والتي لازالت عالقة في الذهن بل قل محفورة في الذاكرة، وعلى نحو ما تشكل لدي انطباع بأن صديقي ومحدثي يلتبس عنده مفهوم المذكرات والذكريات، والفرق بين المفهومين يكاد يكون شاسعاً، فالمذكرات سجل متوازن من الاحداث وفق نسق تاريخي متتالي، في حين الذكريات احداث منتقاة من حقب زمنية مختلفة، قد تكون حلوة أو مرة، تاركة أثارها بأنطباعات متنوعة في حياة شخص ما، وهي قابلة للتزويق والتجميل والاضافة

والحذف، و ربما النقصان، و مثل هذا الالتباس قد يفقد الاحداث قيمتها الحقيقية على نحو ما، وربما يظهر الراوي وكأنه مقيد في كشف الستار، ولكنه يقترب الى الاحداث بطريقة ما وكأنه طرف محايد، هكذا شعرت وانا اسجل ما روى لي صديقي من احداث، وقد يكون هذا هو السبب الذي يجعل كثيراً من الناس يفضلون نشر مذكراتهم بعد انتهاء مشوار حياتهم الصاخب و المليء بتفاصيل تبدو في كثير من الأحيان لا تخلو من تعقيدات وأسرار ربما يشكل الإفصاح عنها إشكاليات مع اطراف أخرى، وعلى أية حال اتفقنا انا وصديقي على ان نطرح ونسجل الاحداث وفق رؤية صديقي بناءً على عهد قطعته له، وفاءاً واعتزازاً و محبةً وتقديراً له صديقاً دائماً.

[٣]

في السودان

حدثني صديقي الدكتور خلف إسماعيل فضل المولى عن حياته المليئة بذكريات بعضها ترك اثاراً محفورة على ذاكرته بسبب حلاوتها تارة ومرارتها تارةً أخرى، حيث ولد في ١/ ٤ / ١٩٦٥م في منطقة الجزيرة في مدينة المسلمية، التي تبتعد حوالي ١٦٠ كلم جنوب العاصمة السودانية الخرطوم، في اسرة تتكون من أحد عشر شخصاً، الابوين وتسعة أبناء، اثنان من الاناث وسبعة من الذكور، كان والده يعمل فنياً في مصلحة التلفونات، والام ربة بيت حالها حال أكثر النساء في مدينتهم. توفي الاب وهو بعمر التاسعة، وتكفل اخوته الثلاثة الكبار بأعاله اخوتهم الصغار الباقين، حيث كانت العائلة متماسكة وتشعر بالمسؤولية ، ويعمل اثنان منهم أي من الاخوة الكبار فنيين كهربائين، أما الثالث فكان أستاذاً أي معلم، ثم انهى خلف الدراسة الإعدادية

ولم يترك الدراسة وكان يستغل العطل الصيفية بالعمل في اعمال حسب توفرها محاولاً الاعتماد على نفسه وكان مجاهداً مُثابراً رغم قساوة الظروف بسبلٍ شتى، وبعد انتهاء الدراسة الإعدادية قُبل حسب معدلهِ في معهد الكليات التكنلوجية قسم البيطرة، والذي اصبحَ لاحقاً جامعة السودان، وكان طموحهُ كبيراً في أن يكون ذا شأن واسماً لامعاً في مجاله يستطيع أن يخدم السودان وحالهِ حالَ كثير من الشباب الطموحين والجادين في الحياة حيث لا يمثل اليأس أو ينفذ الى حياتهم شيئاً على نحو ما، و يشكل لهم الطموح والرغبة هدفاً لا تثنيه رياح.

[٤]

كانت المحطة الأولى في حياة خلف مدينة المسلمية، وهي بلدة سودانية تقع بولاية الجزيرة على بعد ١٥٦ كلم جنوب الخرطوم عاصمة البلاد، وعلى بعد ١٢ كلم عن مجرى النيل الأزرق غرباً، ويعود سبب تسميتها الى قبيلة المسلمية التي يرجع نسبها الى بني أمية، وهم أبناء مسلم بن حجاز بن عاطف، وترجع بعض المصادر نسبهم الى أبي بكر الصديق (رض). أسست المدينة عام ١٦٦٠م على يد محمود ود نوه الذي ينتمي الى قبيلة الشنابلة التي تقطن المسيلمة أيضاً، وقد تزوج من قبيلة المسلمية وتقع المدينة على مشارف حوض ود نوه الذي سمي بهذا الاسم قبل قيام السلطة الزرقاء.

والمسلمية مركز تجاري بلغ من الشهرة حتى وصل مصر شمالاً، وكانت تمر عبرها القوافل التجارية المتجهة من الجنوب نحو الشمال، وقد ذُكرتْ في كتاب (على تخوم الإسلام)، الذي ألفه اثنان من الاوربيين في

عهد خديوي مصر محمد علي باشا. وتأسست في المسلمية عدة مدارس عرفت (بالخلوات) لتعليم القران الكريم، وفيها عرفت اول صناعه للنسيج، عندما قامت بنت شمو بصناعة ثياب عرفت باسم (المفرفردة). ومن رموز المدينة التاريخية الشاعر الحسين بن الزهراء صاحب قصيدة رثاء الامام المهدي، والشيخ مجروب عبد الله الذي رأس وفد الخليفة عبد الله التعايشي الذي أرسل بيده ثلاث رسائل الى مصر عام ١٣٠٥م، واحدة الى خديوي مصر العثماني، والثانية الى ملكة بريطانيا، والثالثة الى السلطان العثماني. أضافة الى ذلك تعتبر المسلمية موطن الشاعرة المشهورة بنت مسيمس التي ذاع صيتها بمدحها الزبير باشا رحمة، وهو تاجر وزعيم أقليمي في السودان، وعرفت المسلمية في فتره من الفترات بأنها مركز لتجارة العبيد.

وتركت المدينة في شخصية خلف أثراً بالغاً ومهماً، نما عبره حبه للسودان، رغم فراقه عنها لفترات زمنية طويلة، لكنه لازال يحن اليها كونها موطن الصبا.

وعلى ذكر الشعراء، فالشاعر الحسين بن إبراهيم زهرا ولد في بلدة ام عضام قرب وادي سعير بضاحية المسلمية في مكان يعرف بزهرا، حفظ القران في شبابه ودرس عند علماء عصره ثم رحل الى الازهر ودرس فيه سبعة أعوام وعاد الى السودان واشتغل بالتدريس ثم عينه المهدي قاضياً ثم سجنه في سجن أم درمان حتى مات جوعاً وعطشاً ويقال إن سبب ذلك انه هجا المهدي أو أصدر فتوى سببت غضبه عليه. ومن اشعاره قصيدتان الأولى في شمائل النبي والثانية في مدح الامام المهدي.

قصيدة شمائل النبي:

أبح سكرَ سرب الحب لا سكرة الخمرِ
ونُحْ بعد أن اغدو وراءً علـــى صخرِ
ونُحْ بعـد فرق الحيّ للحـي بالهـوى
وجُدْ باكياً مـا دمتَ بالأدمع الحُمـــر
فـأني بمن أهـــواه ما زلت والـــــعاً
ومازال بي نـارُ تـــؤججُ في صدري

ومهما خلا قلبي بسل ومـــــن ثوى
بجنان عدنٍ جـادتِ العين بالقـــــطر
ولا غروَ أن غارت عيوني مـــن النوى
وحرت ولا أدري على أي مـن الاجر
دعاني فؤادي للهـوى فـــــأجبتـــه
فلم أهوَ عَمْداً لا ولا أمـة عمـــــــر
ولا دارَ بـكـــرٍ لا ولا أمَّ خـــالـــــدٍ
ولا نغمةَ الأوتار فـي حانة السـكـر
ولا عزّةً تـزري ولا وصـــــــــل ع
ولا روضَ أزهـارٍ ولا نُضـــرة الـزهـر
ولا وصلَ إخـوانٍ وأنس مسـامـــــرٍ
ولا صحـبةَ الأحداث فـي حالة الـوفر
ولا حُمـرَ أنـعـامٍ ولا سـودهـــا ولا
مقامـي ببـغدادٍ ولا فـي رضـا مـصـر
ولا للعـيـون السـود عـــــندي تلفّتٌ
ولا قاصرات الطرف فـي غرفة القـصر
ولا ذات دلٍّ مـــونقٍ فـي خمـــيلـــةٍ
ولا فتـيةٍ تغنـي عـن الرفع والـجـــرّ

ولا مكتفٍ بـالعـلـم عـــن عـلـم ذاته
ولا معتنٍ بـالنقض في البـحث والكـسر
ولا أمّ رحـمٍ غـيرَ أنـــيَ مولـــــعٌ
بسلعٍ ألا هلا يكـون بـهـــــا قبـري
ومـولىً بـهـا مـا فـي الـوجـود نظيره
بـه جـاد ذو الإحسـان واللطـف والبِـرّ
جـداه الجـدى والكل فـي طـــيٍّ كفّه
ونـاهـيك مدحًا فـيـه ما جاء في الذكر
دعـا خـيرَ مســـؤولٍ فـوفّى بـوعـده
فلـبّاه إذ نـاداه بـالـذكر ذي الأمـــــر
فخلّى سبـيل الجـاهلـيـن وحـــلّ فـي
ريـاض الرضـا أكرمْ بذي الـمنزلِ القفر
ألا ذا النهى فأنهى نفـوسًا عـن الهـــوى
ودِنْ هكذا وامـررْ عـلى الرِّجل بـالجمر
ولـمـا حـبـاه رفعة القـدر مـــــــنّةً
عـلى خُلْقه أثنى بـما ليس فـــي الشعر

فهـيـهات شعري أن يفـي أشجعَ الـورى
وأحـلـمَ مـوجـودٍ وأمـجـدَ ذي قـدر
وأعـدلَ قـاضٍ مـا قضى عـمـرَ سـاعةٍ
بجـورٍ وأسخى فـي العطـاء من الـبحـر
فـمـا بـات والـديـنـارُ فـي داره ولا
أجلّ ولا أدنى مـن العـاجل لنـزر
لـديـه سـواءٌ فـقـدُ ذاك ووجـده
ودنـيـاك والأخرى فـما زيـنـةُ الـدرّ

***

القصيدة الثانية في مدح الامام المهدي (عج)

مهـدي الورى

في مدح الإمام المهدي

برحَ الخـفـا مـا الـحقُّ فـيـه خـفـاءُ
وتـوالـتِ الآيـاتُ والأنـبـاءُ
فـالأمـر جـدٌّ والقـلـوب مـريضةٌ
والـداء داءٌ والـدواء دواء

والـحـادثـات مـصـاعقٌ بـمـنـــــابـرٍ
بعـظاتهـا تتـواضـع الأشـيـــــــــاء
والـحق أظهـر أن يُرى بشـــــــواهـدٍ
لـمَ لا وقـد قـامت بـه الأسمـــــــاء
والشمسُ فـي أوج العـلا مـــــــن مغربٍ
بـهـرت عـلـيـهـا هـيبةٌ وبـهـــــــاء
والـبـدر قـابـلـهـا فتـمَّ كـمـــــــاله
وتقـلّدت بعقـودهـا الجـــــــوزاء
ونجـــــوم أفلاك العـلا دارت عـــــلى
أقطـابـهـا فزهـــت بـهـا العـلـيـــــاء
وتكـامـلـت فـي كل مـجـــــدٍ أبجـدٍ
لـمـا استقـام زمـانُـــهـا الأشـيـــــاء
مـا إن تـرى إلا جـمـيلا زاهـــــــراً
بـهـرته فـي حُلل الـبـهـا زهـــــــراء
وسقتْه مـن خمـر الهـوى بعـيـونهـــــا
ولـمـى ثغور شفـاهـهـــا لـمـيـــــاء

بـالآية الكبـــرى الـتـي بظهـورهـــــا
كـمـل الرضـا وانجـابتِ الأســـــــواء
السـابقُ ابن السـابقـيـــــــن إلى الهــدى
مـن معـشـرٍ نـتجت بـهـم زهـــــــراء
وبـهـم تبـلّجَ كلّ غصـــــنٍ مـثـمـــــرٍ
بحـلاه تزهـــــــــــو روضةٌ خضراء
تُسقى بعذبٍ رائقٍ مـن أبحـــــــــــرٍ
مـن فـيضهـا مـلأ الـبحـــــور الـمـــاء
وهـمـى وجـاد عـلى الأنـام بـمـا تـــرى
مـن غـيثه الهـــــامـي عـمـيـم سمـــاء
بشـرى لنـا بظهـور مهديِّ الـــــــورى
إيـهٍ ونعـــــــمـى بعـدهـا نعـــمـاء
جُمعت حذافـيـــــرُ الـولاء لنـا بـــــه
وعـلى الجـمـيع مـن الإمـــام خِبـــاء
رفعتْه مـنه يـدٌ بقـــــــدرة قـــــادرٍ
فـــــوق الـمبـانـي مـا عـلاه بنـــاء

بـمكـانه الأمـــــــــن الـــــــــمؤيّد وقته
والأرض أرضٌ والسمـــاء سمـــــــــــــاء
أنعـمْ بأمـرٍ كـان مـن جـــــــدّ القضـــا
جـارٍ وقـد حكـــــــــمت بـه الأسمـــــاء
وله الإشـارة مـن «ألست بـربكـــــــــــم»
طـوعًـــــــا له ولـيســـمعِ العـلـمـــــاء
مـا حـالهـــــــم مـا بـالهـم لـم يسمعـوا
نفسـي لهـم ممـا يشـيـــــن فـــــــــداء
مـن يحفـظ الأخبـار عـــــــــن أهل النهى
وتُعـيـــن ذلك فطنـــــــــةٌ وذكـــــــاء*

***

* انظر معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

اما الشاعرة الأخرى التي ذكرناها وهي بنت مسيمس شاعرة الزبير باشا واسمها الحقيقي رقية، وقالت في مدحه:

الواعي ما بوصوه من أمس الضحى

تورى أب زنود ساقوه يا مقنع ولياتو

الواعي ما بوصوه الفـــــتح الدرب

العرب يمشوه غـنيت بجيب مسدار

المكنه بتكاكى جـــــنك مدافع النار

يا قـــــصر الرجال اللي الفقر عصار

يـــا قصر الفراسه اللي الضلع كسار

يا نار الزبل الما بندركلك حـــــال

يا رحل الكـحل لا بتنزاح ولا بتندار

عـــــــوج الطنضبه الما بتعدلو النار

درعـــــــولو أم خريز العسكر الزنهار

مأمن بالقماحه اتفـــــرشت واتغطيت

دا عقد الحديد لـــــى الحلبى ما بنفك

دا سم الغدور الفـــــى الحلق عشرق

منو غيرك فى الحراجه البدق مدافع الحق

قلت ليـــــهم عشارى مسـكو يفوح

مـــا ختف البدينقا وما جفل مـجروح
بلع الألف كـــلو درب الجبين مطروح
جابوك بى أم خريز الزدخانه تـفـوح
سيفك بشيل الفقر ومعاها مـلاح المخ
من كوجه وكجيج لي عند بلاد الصين
جابونا الضحى فـــي مركز الكاملين
الأهبل يقول أدوه عـــــــشره سنين
والعاقل يقـــول حكموا عليهو بسنتين
وكتـــا جانا الجنا الطبق الجنات أتنين
كملت العـــمد والمشايخه وحلانين
ابشر يا صـــــــــقر ما تكتر الحلقان
تأكل ليـــــك مطاياً ما لحم سخلان
تأكل في مطاياً ما لـــــــحم عيران
تأكل في مطاياً فوق ضهر سلـــطان
تتغدى وتفوت كبده وكلا ومصـران
شن منك نقول ما مـات عِقيد مُرجان
تكلم يا لساني تكـــــــلم المنطوق
عن مدافع الحق ألفـــي مشيها بروق

لو كان بالمراد واليـــــــــمين مطلوق

ما كان بتشنق ود ان كريق في السوق

وفي قصيدة أخرى تغنت بالزبير باشا وهو يهم بالذهاب الى مصر وتبين فيها حجم قلقها، ومن الجدير بالذكر انه أسِر في مصر

من قومه الجهل انت عظيم منصور

ادوك الأمان خايفين عليـك الجور

ثم تسترسل وهي تنشد:

في السودان قبيل ما بشبهوك الناس

يا جبل الذهب الصافي ماك نحـاس

بارود انتصار عند غمرة الكـــــبّاس

خليت المجوس الين من القـــرطاس

عدّى عصرو زين في بلاد النـــــاس

وفي دار غرب دق للرجالة نحـــــاس

كم قتّل سلاطين خلى دارها يبـــاس

ود رحمة الزبير تمّ الرجـــــالة خلاص

[٥]

يحتل المكان الأول في حياة الانسان مساحة منقوشة في الذاكرة، وهذا النقش مثل وشم لا يزول، يرافقه طول الحياة.

ويقول الشاعر إبراهيم ناجي:

أسقني وأشرب على أطلالـــــــــــه

وارو عني طالما الدمـــــــــــع روى

ويقول محمود درويش:

المكان الرائحة

قهوة تفتح شباكاً، غموض المرأة الأولى

أب علق بحرا فوق حائط

المكان الشهوة الجارحة

خطوتي الأولى إلى أول ساقين أضاءا جسدي

فتعرفت إليه وإلى النرجس فيِّ

المكان المرض الأول ...

أمُ تعصر الغيمة كي تغسل ثوبا والمكان
هو ما كان وما يمنعني الآن مـــن اللهو
المكان الفاتحة.....
المكان الأرض والتاريخ فيَّ
المكان الشيء إن دل عـليَّ
لا شيء يضيء الاسم في هذا المكان

هكذا كانت بداية خلف في مدرسته الثانوية مكان الوعي الأول الذي تفتحت عليه نوافذ الوعي حين تأثر بالفكر الشيوعي عن طريق أخيه الأكبر فضل المولى واصدقاءه في مدينة المسلمية، من خلال انتمائهم الي الحزب الشيوعي السوداني الذي تأسس في السودان عام ١٩٤٦م، (وعرف باسم الحركة السودانية للتحرر الوطني منذ تأسيسه حتى عام ١٩٦٥م. وقد تأثرت في بداياتها بالحركة الشيوعية المصرية بقيادة هنري كورييل* . تعاقب على قيادة الحركة الشيوعية السودانية في

* هنري كورييل ولد في ١٩١٤/٩/١٣. ناشط سياسي مصري-فرنسي اسس منظمة شيوعية في مصر واحد مؤسسي الحزب الشيوعي المصري. اغتيل في باريس في ١٩٧٨/٥/٤.

سنينها الأولى ثلاثة من القادة هم عبد الوهاب زين العابدين ١٩٤٦ -١٩٤٩م، عوض عبد الرزاق ١٩٤٧ - ١٩٤٩م، ثم عبد الخالق محجوب ١٩٤٩ -١٩٧١م ويقود الحزب حتى الان امينه الرابع محمد إبراهيم نقد الذي انتخب بعد اعدام عبد الخالق محجوب، وأصدر صحيفته الأولى الميدان)، ويعتبر من القوى السياسية المؤثرة آنذاك، إضافة الى انه واحد من أكبر حزبين شيوعيين تشكلا في الوطن العربي هو والحزب الشيوعي العراقي لغاية عام ١٩٧٠م، وكان الحزب تحت قيادة محمد المختار ال خطيب الذي اسسه مع عبد الخالق محجوب، وبرز جيل من قادته اضافه الي المؤسسين هم جوزيف قرنق، الشيخ احمد الشيخ ، محمد إبراهيم نقد، خالده زاهر سرور والخاتم عدلان.

وفي الساحة السودانية عملت عدة أحزاب وحركات سياسية مختلفة نذكر منها :

- حزب الامة
- الحزب الوطني الاتحادي

- حزب المؤتمر الشعبي
- حزب البعث السوداني
- الحزب الليبرالي
- مؤتمر أبجا

وفي ١٩/يوليو/١٩٧١م، قادَ الحزب الشيوعي السوداني بمحاولة انقلاب فاشلة سميت أنذاك بثوره يوليو التصحيحية، لكنها لم تنجح، وعلى أثرها عانى الحزب كثيراً من الاضطهاد والملاحقة والتشريد والمطاردة والسجون، ولم يقتصر ذلك على التعذيب، بل تعدى ذلك الى الإعدام، حيث أعدم قادة الحزب وهم جوزيف قرنق، عبد الخالق محجوب وجاسم العطار وآخرون.

يقول الشاعر هاشم عطا عن انتفاضة ١٩٧١م

اسمو عبد الخالق

ختاي المزالق

أب قلبا حجر

يا أرض الوطن

يا أمو العزيزة

ختالك ركيزة

دائما باقية ليك

في الحزب الشيوعي

طيري يا يمامة

وغني يا حمامة

وبلغي اليتامى

والخائفين ظلاما

عبد الخالق حي

وبالسلامة

وفي مقطع اخر يقول:

طوال النهار والليل

في عيني شايلك شيل

لكني شادى الحيل

والخوف علي داهم

هاك قلبي ليك منديل

الدمعة لما تسيل

قشيها يا مريم

التأثر منذ الصبا بالأفكار الماركسية الشيوعية جرف الشباب الى الحلم بالأفكار الشيوعية العالمية تأثر بالتجربة البلشفية التي كانت تنادي بأعمال العالم وشعوبه المضطهدة أتحدوا، فضلاً عن كون الحزب الشيوعي السوداني يمتلك قاعدة شعبية واسعة خاصةً في المدن السودانية التي تعاني من الاضطهاد والتخلف، اضافةً الى التأثر العاطفي الذي قاد خلف للتأثر بالفكر عن طريق الأخ الأكبر فضل المولى الذي يمثل مع اصدقاءه مثالاً لخلف وباقي الشباب للتأثر الفكري مما حفزه للانتماء الى الجبهة الديمقراطية التي هي عبارة عن تحالف بين الطلاب الشيوعيين والديمقراطيين تحت مسمى مرحلة الثورة الوطنية، وكانت تحمل برنامجاً وطنياً شاملاً لحل مشاكل الحياة عن طريق الاقتصاد غير الرأسمالي، و كانت هذه الفترة في ظل حكم الدكتاتور جعفر نميري.

وجعفر نميري (١٩٣٠ -٢٠٠٩م) ينتسب الى قبيلة الدناقلة وهي من القبائل النوبية التي تسكن شمال السودان، وسبق وان تخرج النميري من الكلية بأم درمان عام ١٩٥٢م، ثم حصل على الماجستير في العلوم العسكرية من أمريكا عام ١٩٦٦م، ثم قاد انقلاباً عسكرياً في ٢٥/مايو من عام ١٩٦٩م، وكان برتبة عقيد أركان حرب، وأسس حكومة تتألف من ٢١ وزيراً برئاسته جلهم من التكنوقراط، وقد حل الحزب الشيوعيين وأضطهدهم، وسجن وعذب الكثير منهم وطاردهم.

هذه الظروف برمتها أثرت على تكوين شخصية الشاب خلف الثورية، وزادت من رغبته في محاولة التفكير لإيجاد حلولٍ جذرية لازمة السودان، بل زاد من عناده وتعلقه بالأفكار الثورية وزاد من ذلك اعجابه بالرموز والقدوات التي سبقته على هذا النحو متمثلاً بالأخ الأكبر واصدقاءه، ولعل حبه لوطنه ومحاوله إيجاد طريقٍ للخلاص كان هو الهدف الأسمى لجيل كامل في البحث عن هوية فكرية ثورية تبحث عن التغيير املاً

في الإصلاح الجذري الشامل، لكن المعاناة كانت كبيرة في ظل نظام دكتاتوري لا يرحم.

ينشد الشاعر محمد محجوب في قصيدة الأطفال والعسكر:

وحياة أمنا الخرطوم
أشيل شيلي وأشد حيلي
وأموت واقف على حيلي
وأقولك يا أعز الناس
على الوعد القديم جايين
وبين الثورة والسكين
شيوعيين
حتى الموت شيوعيين

ويقول الشاعر محمد الفيتوري بحق الشهيد عبد الخالق محجوب:

في حضرة من أهوى عصفت بي الأشواق
فحدقت بلاعين ورقصت بلا ساق
عشقي يغني وفنائي استغراق

مملوكك لكني سلطان العشق

أمس قد مر طاغية من هنا

نافخا" بوقه تحت افواهها

وانتهى حيث مر

وينشد الشاعر محمد محجوب:

سأجنيك مساجينك

تغرد في زنازينك

عصافير مجرحة بي سكاكينك

نغني ونحن في اسرك

وترتجف وانت في قصرك

يقول الشاعر العراقي علي الحسيني في قصيدة قبل تموز تناغما مع ما ذهب اليه الشعراء السودانيين.

قلبي الذي املكه أعمى

لان ألامي

عادت بأيامي

للخلف.... للإقطاع... للجور

من يبعث الشمس على قلبي؟

فأبصر الضوءَ....!

ومن قصيدة يوسف للشاعر علي الحسيني:

أطفال قريتك الذين سيكبرون

لابد هم يتفهمون

حتى إذا فهموا... وثاروا. لن تكون هنا سجون

ولن يعود نشيدنا: نهوى الظلامْ

ان رميت خيم فوقنا. نهوى الظلامْ..

سنشق، يوماً، كل جدران الطغاة

ويعود يشرق في أراضينا الصباح..

أطفال قريتك الذين سيكبرون

لابد، يوماً، يفهمون

حتى إذا فهموا... وثاروا. لن تكون هنا سجون

وسينشدون على الجموع

لا قيد بعد اليوم... لا فرد يجوع

لا امهات ينتحبن على الطريق

فالحاكم الطاغي الذي سلب الشباب

من كل دار في بلادي، حيث تحرسهم طرب

لا قيد بعد اليوم.... لا سجن يشاد

فالمال يصرف للمعامل والحقول.

أطفال قريتك الذين سيكبرون

كبروا.... وثاروا في وجوه الغاضبين

كبر الفهود

وتعلموا ان لا هوادة في النضال

وتعلموا ان الحياة

لا طعم فيها .... ان يعيش هنا طغاة

كبر الفهود

لو انت تحيا بينهم.... لترى الصغار

أطفال قريتك الصغار

عادوا كبار

عادوا يشغلون الطريق بلا انتظار

هكذا كان حلم خلف ورفاقه في ان يصبحوا ثواراً يحلمون بغدٍ أفضل ينجلي الليل الاغبر بصباح أجمل.

[٦]

المحطة الثانية والمهمة في حياة خلف حين تخرج من الثانوية، والتحق في معهد الكليات التكنلوجية، قسم الدراسات الزراعية، البيطرة، حيث انتهى الى اتحاد الطلبة في الجامعة، ثم أصبح عضوا" في المجلس الثلاثيني السوداني، وتدرج في العمل السياسي مع أخيه الأصغر منه عمراً طارق. اتسمت هذه المرحلة بصعوبات بالغة حيث كان الجو السياسي العام في السودان ملتهباً ومشحوناً الى درجة الغليان، ووقع على الشيوعيين كثير من الأذى متمثلاً في الملاحقات والسجون والمطاردات والتشرد والاضطهاد ولكن اتقاد الروح الثورية عند الشباب زاد من الرغبة في النضال لإنقاذ السودان من مشكلاته المعقدة بسبب النظام الدكتاتوري. ويجسد ذلك الشاعر محمد الحسن سالم حميد بقصيدة كرباجك والتي تغنى بها مصطفى سيد أحمد:

قصيدة كرباجك

كُرباجك القطرانو حزب السارقين
نازل على ظهر القوي
والجسمو ضُلالتو اليقين
مابستكين.....
لو روحو فاضت وبنقت
في كل ربوع وطنو الحزين
لو انتو شلة مَسخرة
وعبدة كراسي ومفترين
نحنا البلد درقا وسيوفاً
طالعة وشلال يقين
بنقولكم يا مفترين
العندو دين ما بسرق البلد
العبادو موحدين

تميزت هذه الفترة بالمفصلية في العمل السياسي، حيث تعددت مشاكل للطلاب مع ادارة الجامعة، وترتب

على هذه العلاقة المتأزمة وغير المنسجمة وعلى أثر ذلك حُلَ اتحاد الطلبة، عدا الصفوف الأولى، أي المقبولين الجدد من الطلبة، غير ان اغلب الطلبة الجدد كانوا من المقبولين في قسم الدراسات الزراعية القادمين من المناطق الريفية والتي تميزت بالنشاط السياسي الضعيف، بالمقارنة مع الوضع السياسي ونشاطه في العاصمة الخرطوم الذي امتاز بنوع من التعقيد، وخاصة الحزب الشيوعي الذي كان نشطاً، وذو قاعدة جماهيرية لها صوتها المرتفع والمؤثر، وبناءً على ذلك لم يستطع خلف التواصل مع الحزب الشيوعي كي يصبح أحد أعضاءه النشطين، ولعل أحد الأسباب المهمة في ذلك خوف الحزب من إختراق نسيجه الحزبي بسبب شراسة الهجمة السلطونة الدكتاتورية، و بروز حوادث كثيرة أثارت الريبة والخوف على التنظيم ومحاولة الحفاظ عليه، وبقيت رغبة خلف متأججة و تفور في داخله للانتماء وتحقيق أمنيته التي طالما كان يحلم بها منذ الصبا والتي هيمنت على تكوين شخصيته الثورية.

جذب إنتباه خلف عدم وجود نشاط للجبهة الديمقراطية في هذا القسم "أي قسم البيطرة" مما حذا به مع زملاء أخرين الى إصدار جريدة حائطية أسموها الشرارة، حيث يعتبر عملاً سرياً وتترتب عليه عقوبات شتى بسبب القوانين السارية، فضلاً عن المراقبة الأمنية، لكن الطموح الثوري عند خلف ورفاقه يتقد يوماً بعد اخر، وأستقى خلف معلومات وكتابات وهتافات كثيرة أخرى من عده جهات، أولها جامعة الخرطوم وجامعات غيرها وكان طارق الأخ الأصغر لخلف هو الساعد الايمن الذي يتميز بخطه الجميل والأنيق حيث ساعد كثيراً على إصدار جريدة الشرارة الحائطية، وكان عملهم في اصدار الجريدة يستمر بعد منتصف الليل حوالي الساعة الواحدة تجنباً للملاحقة الأمنية، وتضمنت مواضيع الجريدة شعارات ثورية رنانة تكتب بالخط العريض الواضح الذي يجلب الانتباه. لكن هذا العمل قاد خلف وزملاءه الى الاحتكاك المباشر بالإخوان المسلمين (الكيزان)، وترتب على هذا الاحتكاك صراعٍ

مكشوفاً ولعب فيه الأخوان دوراً عدائياً بسبب الأختلاف الأيديولوجي مما دعاهم الى إصدار جريدة حائطية منافسة وكتبوا فيها عن إنتهاء الشيوعية ومن ضمن ذلك مقال حول إنتهاء الشيوعية القريب وبالذات في الأتحاد السوفيتي مما يترتب على ذلك انتهاءها في الوطن العربي وتحديداً في السودان، مما أثار حفيظة الطلاب الشيوعيين والمتعاطفين معهم من أنصارهم. لم يكتفِ الاخوان بالجريدة والتصريح بصوت عالٍ ضد الفكر الشيوعي بل زادوا من الهيجان الطلابي بأن عقدوا ندوة مناهضة للفكر الشيوعي قدم لها عمار أدم الملقب بـ (قيس البركس)، وبعد ذلك حاولوا الأعتداء على جريدة الشرارة مما تصدى لهم الطلاب الشيوعيين وأنصارهم هذا الحراك والهيجان السياسي جاء متناغما" مع هيجان وغليان الشارع السوداني وزاد من ذلك اقدام السلطات على أعدام الشهيد محمود طه من الحزب الجمهوري، وهذه الاحكام السافرة كانت قد صدرت تحت مسمى قوانين سبتمبر ١٩٨٣م وهي أساساً

قوانين إسلامية تعبر عن تغلغل الاخوان المسلمين في رحاب السلطة. ومن أمثلة الصراع بين الطرفين كتبت عضوه المنبر ميادة كمال الابيات التالية وكان الغرض منها تشويه الأبيات الجميلة التي تغنى بها الحزب في انتخابات ١٩٨٦م.

يا محمد أحمد همتك صوتك
امانة في ذمتك
ما تخلي سادن قمتك
يا يابا يا سمح السلوك اوعا
السماسرة يضللوك
صوتك وصوت ولدك واخوك
ربحن مخزن في البنوك

وظل الشعر المعبر عن الاحداث أكثر من الخطب السياسية:

جاى وجاى وجاى
مافى حاجه ساى

كلّو عندو دِين

كلّو عندو راى

وتحولت هذه الابيات الجميلة الى:

أي شيوعي احمد

مابيسيبو ساي

بيعبد الطبيعة

مابيسيبو ساي

بيشرب الهناي

مابيسيبو ساي

لما أي شتكي يبقى مسطرينا من

بيحمي ارضنا. !!

وأيضا كلمات حميدة الجميلة:

من حقي أغنى لشعبي

مــن حق الشعب علي

لا بإدك تــمــنع قلبي

ولاقلبي كـمان بايديا
علمني أغنـــي الطين
المخرطة والطـــورية

وتحولت الى:

من حقـــــي أبقى كوز
ولا شيوعي يمنـع قلبي
ولا قلبي كمان بإيديا

وعلـى أي حـال فالصـراع طويـل بـين الاخـوان وبقيـة الحراكـات الأخـرى وفي هـذه الاثنـاء ثـم إختيـار خلـف عضواً في الأتحـاد العـام للطـلاب في جامعـة السـودان مـن قسم البيطرة (كوكو) وتبـع ذلـك اختيـاره في المجلس الـثلاثين وعضـواً في المكتـب المـالي، لكـن هـذا الوضـع السياسـي المرتبـك أثـر كـبيراً في خلـف وزاد مـن إصـراره وإيمانـه وإختيـاره طريـق النضـال لانتشـال السـودان مـن واقعه المرير.

وفي هذه الاثناء بدأ خلف ورفاقه بالتحضير للخروج

ضد نظام جعفر نميري بمحاولة تعبئه الجماهير الطلابية ودعوتها الى مظاهرات حاشدة بهدف إسقاط النظام الدكتاتوري، وما زاد من إرتباك المشهد وتطوره فض الاتفاق الذي كان قائماً بين الاخوان والرئيس الدكتاتور جعفر نميري، وترتب على ذلك دخولهم السجون مع المطاردة والملاحقة وعلى رأسهم عبد الله الندابي.

وفي هذه الأثناء والحال بهذا الشكل تم عقد عدة اجتماعات وقرر خلف ورفاقه الخروج الى الشارع بمظاهرات حاشدة لإسقاط النظام أو الضغط عليه وإجباره على تغيير سياسته، وبناءً على ذلك قرر المجتمعون على إختيار قيادة للمظاهرات وإختيار قيادة ظل في حالة تعرض القيادة لأي نوع من الاعتقال او التعسف وعلى أي حال تم اختيار خلف في قيادة الظل بديلاً سرياً لقيادة المظاهرات.

صادف بعد خروجهم أي خلف وزملاءه من الجامعة في يوم ٣/٢٧/ ١٩٨٥م مع بعض أعضاء الاتحاد إضافه الى

طلاب أخرين من جامعات مختلفة ولهم انتماءات واتجاهات شتى، عدا الطلاب المنضويين تحت قيادة الاخوان المسلمين، مع جماهير أخرى يتصدرون مظاهرة حاشدة هاتفين بسقوط النظام الدكتاتوري والحقيقة ان هذه المظاهرات تكررت وكانت هي الشرارة الأولى في الخرطوم حيث أغلقت جامعات عده، وكان لجامعه السودان الدور الأهم والابرز في تحريك الشارع، غير ان دورهم سرعان ما أصبح هامشياً، حيث تحركت جماهير الشعب متلقفة هذه الشرارة بتجمع نقابي وطني طغى بمجموعة على الطلبة الذين أصبحوا قلة قياساً بالجماهير الغفيرة وبأعدادها الهائلة وتكللت هذه المظاهرات بانتفاضة شعبية سميت إنتفاضة ابريل ١٩٨٥م، وترتب على ذلك إنحياز القوات المسلحة السودانية الى الشعب وكانت القوات المسلحة بقيادة المشير عبد الرحمن سوار الذهب، وتم تأسيس مجلس عسكري ومدني انتقالي لمدة سنه برئاسة الدكتور الحز دفع الله. والمشير عبد الرحمن محمد حسن سوار الذهب

هو خامس رئيس للجمهورية في السودان، ومنذ عام ١٩٨٥م تسلم السلطة على أثر الانتفاضة الشعبية حيث نسق مع قادة الانتفاضة التي ضمت الأحزاب السياسية والنقابات المختلفة، علماً انه أيضاً إسلامي من الدعاة.

ولد سوار الذهب عام ١٩٣٤م في مدينة الأبيض وتوفي عام ٢٠١٨م، واثناء حكم الرئيس سوار الذهب الذي وعد الأحزاب والنقابات بتسليم الحكم بعد عام، وقد أوفى بوعده حتى أصبح مثالاً يشار اليه في عالم السياسة، لكن المؤسف إن الاخوان المسلمين إستطاعوا كعادتهم التغلغل الى الحكم وعبر ذلك الى مجلس الوزراء من خلال رئيسها الدكتور الجزولي إضافة الى بعض من أعضاء المجلس، وأستطاعوا من خلال ذلك الى تشريع مجموعه من القوانين والأنظمة التي كانت مفبركة وتخدم نواياهم وكأنها فصلت على مقاسهم حيث شملت قوانين الانتخاب لدوائر الخريجين وبذلك إحتلوا حجماً كبيراً في العمل السياسي هيمنوا من خلاله على الوضع العام للسودان برمته، مستغلين الدين

نافذة يدخلون بها الى قلوب البسطاء من الناس بوضع سياسي مرتبك أصلاً ونتج عن ذلك حكومة تدعي الوطنية والديمقراطية برئاسة الصادق المهدي.

والأخوان المسلمون في السودان حركة تأسست في نهاية الاربعينات من القرن الماضي على أثر زيارة وفد مصري جاء الى السودان عام ١٩٤٩م بقيادة جمال الدين السنهوري ومن ثم في أبريل من العام نفسه ظهر فرع للإخوان في السودان، وساعد في ذلك الطلاب الدارسون في مصر من السودانيين الذين تأثروا بالحركة التي ظهرت بادئ ذي بدء في مصر بقيادة حسن البنا، ومن ثم ظهرت عدة اتجاهات وأجنحه مختلفة إستطاعوا لاحقاً توحيدها في عام ١٩٥٤م تحت قيادة الاخوان، ثم ترأس الفكر الإسلامي الدكتور حسن الترابي، وظهرت بعد ذلك جبهة الميثاق الإسلامي وهي عباره عن تحالف بين الاخوان والسلفيين والطريقة النجافية والصوفية منذ عام ١٩٦٩م الى ١٩٧٩م. وأنتج هذا الفكر عداءً للشيوعيين متهمين إياهم بالإلحاد والعمالة للاتحاد السوفيتي.

وعلى أي حال كان خلف يعتقد جازما" من خلال متابعته للوضع السياسي المرتبك في السودان من ان هذه الفترة بتحولاتها السياسية لم تستطع تفكيك الدولة العميقة التي كانت سارية قبل هذه الاحداث، بل استطاع الاخوان المسلمون الذين تميزوا بالانتهازية السياسية من تسخير الظروف لصالحهم، حيث تميزت حركة الاخوان المسلمين باستغلالها للظروف السياسية وتم الانقلاب على الديمقراطية في ١٩٨٩/٦/٣٠م، وبدأت صفحة أخرى من التعقيد السياسي مصحوباً بالعنف والملاحقة والمطاردة لحقت الأذى بكثير من الأبرياء والمناضلين الذين أحبوا وطنهم السودان وقدموا أرواحهم قرباناً للبلاد الجائرة بحكامها.

يقول الشاعر محمد محجوب:

أقول دون رهبة، أقول دون زيف

أموت لا أخاف أين أو متى وكيف؟

أموت في سريري

زوجتي بنتاي

جيرتي عشيرتي

وأصدقائي

قطتي راكوبتي وزيري

معززا مكرما مهندما

بناصع البياض

موكب يحفني لمرقد أخير

أموت لا أخاف

قدر ماأخاف

أن يموت ضميري

ويقول الشاعر محمد مفتاح الفيتوري:

مثلي انا ليس يسكن قبراً

لاتحفروا لي قبراً

سارقد في كل شبر من الأرض

ويقول الفيتوري عن الانتفاضات الثلاث التي حدثت في السودان:

أصبح الصبح ولا السجن ولا السجان باقٍ

وإذا الفجر ٌ جناحان يرفان عليك

واذا الحزن ٌ الذي كحل هاتيك المآقي

التقى جيل ٌ البطولات

بجيل التضحيات

التقى كل ٌ شهيدٍ

قهر الظلمِ ومات

بشهيد لم يزل يبذر في الأرض بذور

الذكريات

وهكذا كان الطريق طويلاً ومازال وفي قصيدة هاشم صديق يقول الشاعر:

قصة ثورة

لما الليل الظال مطول

وفجر النور من عينا اتحول

قلنا نعيد الماضي الاول

ماضي جدودنا الهزمو الباغي

وهدو قلاع الظلم الطاغي

وفي ليله وكنا حشود بتصارع

عهد الظلم الشب حواجز.

شب موانع

جانا هتاف من عند الشارع

قسماً قسماً

لن ننهار

طريق الثورة

هدى الاحرار

وغضب الامه اتمدد نار

وهزمنا الليل

[٧]

المحطة المفصلية في حياة خلف تمثلت في حصوله على منحةً دراسية الى الاتحاد السوفيتي عبر الحزب الشيوعي السوداني، هذه المنحة الدراسية قدمها الاتحاد السوفيتي الى دول عديدة مجاناً الى الأحزاب الشيوعية في دول مختلفة شملت الدول النامية والفقيرة في اسيا وأفريقيا وسواها من البلدان حتى شملت دول لم تكن شيوعية او فيها أحزاب شيوعية ولكن ذات اتجاهات يسارية او حتى يمينية وبعض منها عبر منظمة الصداقة مع الشعوب وعلى اية حال حالف خلف واخاه طارق الحظ وابتسمت لهم الدنيا بحصولهما على زمالتين دراسيتين عام ١٩٨٥م، والحال بهذا الشكل من الاضطراب السياسي، حصلوا على جواز السفر وبدأوا عملياً الاستعداد للسفر الى ارض الاحلام التي تمثلت لهما ولغيرهم من الطلبة الوافدين الى روسيا تجربة مهمه ومثالية لتحقيق الاحلام ورغبة ما بعدها رغبة في

انقاذ السودان وغيره من البلدان الأخرى من براثن الهيمنة الاستعمارية المقيتة في سرقه ثروات الشعوب والهيمنة السياسية من خلال الأنظمة الرجعية عبر الأفكار الشيوعية التي طورت الاتحاد السوفيتي وكانت التجربة الاشتراكية مثار اعجاب العالم الثائر، ومثلت لهم حلماً مثالياً كبيراً وخاصة وان ذلك حدث بعد انتصار الانتفاضة الشعبية في ابريل من عام ١٩٨٥م، ومن الجدير بالذكر ان اغلب الذين حصلوا على هذه المنح الدراسية هم من أبناء الطبقة العاملة والفلاحية وعن طريق الحزب الشيوعي السوداني او المتعاطفين والمنتمين لهذا التيار، وكان حلم الخلاص والديمقراطية والاشتراكية املاً يسعون لتحقيقه، وكان الاتحاد السوفيتي يمثل ملاذاً امناً وساناً لكل القوى السياسية اليسارية في العالم، اما الطلبة من الطبقات الغنية ذات السعة في الطول فأنها كانت تفضل الدول الاوربية والرأسمالية، والحقيقة كان الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية واضحاً ومكشوفاً في كل الميادين حتى في

الدراسة ونشر ثقافة الطرفين بشكل او بآخر.

عاد خلف وأخوه الى مدينة المسلمية قادمين من العاصمة الخرطوم، لتوديع الاهل والاستعداد للمغادرة، وكانت في مدينة المسلمية رابطة طلاب فعالة ولها دورُ بارزُ ونشاطُ مهمُ ذا تأثير واسع تطور بعد الانتفاضة الشعبية التي تكللت بأسقاط النظام الدكتاتوري الذي هيمن على السودان، واخذت هذه الرابطة على عاتقها تنظيم الندوات الأدبية والشعرية والامسيات الثقافية إضافة الى توطين العلاقات بين الطلاب التي زادتهم إصراراً على مواصلة العزم في مواصلة الطريق الثوري، وفي هذه الأثناء اعدوا الحفلات احتفاءً بالطلاب المغادرين الى الاتحاد السوفيتي باعتبارهم قادة المستقبل الذين سيساهمون في بناء بلدهم السودان. والحقيقة ان كل شخص منهم بروح الشباب المتأجج كان عبارة عن شعلة نار متقدة وطموحة وكأنهم سيوفُ صامدةُ تنتظر حدها لتكون بتارة ضد كل أنواع التعسف الذي تعرض له السودان.

وقام الاهل والأصدقاء وقسم من أعضاء الرابطة بالاحتفاء بهم في حفلة جماعية وكأنهم يزفون الطلبة الى عرس، وكان هذا اليوم بالنسبة الى خلف وزملاءه يوماً خالداً تميز بالحميمية والعلاقات الاجتماعية ودامت حلاوتها وذكراها في الوجدان. ان ارتباط الانسان بالأرض والوطن ومنطقه الولادة والصبا لا يمكن وصفها وصفا عادياً كونه يمثل ارتباطاً روحياً يرتبط بالعادات والتقاليد الشعبية واشياء كثيرة يصعب شرحها تأجج الحنين الى البلاد.

ويقول الشاعر الجاهلي:

قف يافؤاد على المنازل ساعا

فهنا الشباب على الأحبة ضاعا

ويقول زهير بن ابي سلمى

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا

مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

بِهَا العِيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ جِلفـةً
وَأَحلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَـلأيَاً عَرَفْتُ الدِّارَ بَعْدَ تَوَهُّـمِ
فَلَـمَّا عَرَفْتُ الدِّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَـا
أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

كان المبتعثون كل من خلف وزملاءه يسمعون عن فرق درجات الحرارة بين السودان الواقعة في أفريقيا والأتحاد السوفيتي وخاصه جزءه الأوربي، وترتب على ذلك الحيطة في الملابس الشتوية التي تعينهم على تحمل البرد القارس، وفرق درجات الحرارة، وكان حالهم يسيراً، مما دفع كثيراً من الجيران لمساعدتهم في جمع ما تيسر من ملابس شتوية، وكانت هذه التجربة مثالاً على قوة العلاقات الاجتماعية بين الناس في السودان وبالذات في مثل هذه المدن، وكانت بالنسبة لخلف وزملاءه مثار فخر وإعتزاز، و رغم صعوبة الحال لكن الكرم والسخاء والطيبة كان عنواناً واضحاً و تحمل

تقديراً ظلوا يتذكروه عرفاناً بالجميل.

وصلوا الى مطار الخرطوم يوم ١٩٨٥/٩/١٧م، لغرض السفر ورافقهم مجموعة من الأصدقاء والأهل وعلى رأسهم كان اخوه الكبير فضل المولى، واثناء التوديع قدم له فضل المولى حلقه زواجه وعشرين دولاراً وقال له خذها معك إحتياطاً للظروف الطارئة، والحقيقة انها كانت التفاتة كبيرة جعلت خلف يفقد السيطرة على نفسه وسالت دموعه احتراماً وامتناناً لهذا الموقف النبيل، والحقيقة هذا النبل والطيبة من قبل فضل المولى يبين ضيق اليد وعسرالحال لكنها تمثل حجم المحبة والأخوة فضلا" عن كون هذا الأخ الأكبر هو القدوة والمثال، وهو الذي تكفل برعاية صغار العائلة بعد أن غيب الموت الأب، فضلاً عن كونه قدوته الفكرية والثورية والمثل الأعلى.

يقول محمود درويش:

هل تعرف البيتَ، يا ولدي
مثلما أَعرف الدرب أَعرفُهُ:
ياسمينٌ يُطوِّقُ بوَّابةً من حديد
ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريِّ
وعبَّادُ شمسٍ يُحَدِّقُ فيما وراء المكان
ونحلٌ أليفٌ يُعِدُّ الفطور لجدِّي
على طبق الخيزران،
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافةٌ وحصانْ
وخلف السياج غدٌ يتصفَّحُ أَوراقنا...

ويقول امرؤ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ
بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

[٨]

ثمة علاقات جديدة تشكلت لدى الطلاب المبتعثين عبارة عن مجموعة من الانطباعات والاسئلة وسواها من الظنون، أولها انهم أول مرة يغادرون الوطن ثم انهم لأول مره في حياتهم يركبون الطائرة، والنقطة المهمة والمؤثرة فيهم هي إنهم ذاهبون الى عالم جديد فيه كثير من المجهول، لكنهم رغم ذلك كانوا فرحين لانهم يذهبون الى اكتشاف عالم يتمتع بالفرادة والجديد، ولاسيما أن الأتحاد السوفيتي كان يمثل للطلاب الشيوعين حلما أيديولوجيا طالما إمتد حلمهم اليه بتحقيق الديمقراطية والاشتراكية، وهي الأهداف الأستراتيجية التي نادت بها كل الاحزاب الشيوعية المتأثرة بالتجربة السوفيتية و يمثل لهم الأتحاد السوفيتي قصة نجاح كانت تسكن في قلب كل مناضل منهم، وكانوا يعتقدون أن هذه التجربة الاشتراكية هي قضية خلاص من التخلف والدكتاتورية، وعلى أية حال كانت فرصة

وربما ضربة حظ جاءت بهذا الشكل، وعلى كل فردٍ منهم ان يتمسك بها بأي شكل من الاشكال، رغم أن الطريق لا يخلو من الصعوبات.

ركبوا الطائرة وكان عددهم (٦٥) طالباً وطالبة وأثناء السفر بالطائرة الذي استمر لأكثر من ثلاث ساعات، تعارف الجميع مع بعضهم البعض وسرعان ما أصبحوا أصدقاء بسرعة البرق وكأنهم معارف منذ زمن طويل، لابل ان هذه العلاقات الطلابية استمرت فيما بينهم وتحولت الى صداقات أخويه، ولعبت دوراً مهماً في تخفيف الغربة، وكأنهم أقرباء ومن عائلة واحده ساعدتهم كثيراً على تذليل كثير من الصعوبات التي واجهتهم.

كان أغلب الطلبة المبتعثين من طبقات بسيطة وبعضهم من طبقات كادحة وحتى معدمة وأول مرة يستقلون الطائرة ويغادرون الوطن أو مدينتهم لأول مرة في حياتهم لهذا مثل الحدث تغييراً في نمط الحياة لكنهم طموحون وأصحاب إرادة قوية وكل منهم يحمل أملاً

كبيراً في ان يكون ذا شأنٍ وربما يطمح ان يكون مناضلاً وكل ذلك من أجل انقاذ السودان والحقيقة المطلقة إيمانهم بجمال الوطن رغم التعسف والأضطهاد، رغم ان الوطن ماضاق لكن كبرت الزنزانة.

يقول الشاعر محمود درويش:

علقوني على جدائل نخلة
وأشنقوني ... فلن أخون النخلة!
هذه الأرض لي ... وكنت قديما
أحب النوق راضيا وموله
وطني ليس حزمة من حكايا
ليس ذكرى، وليس حقل أهلّه
وطني ليس قصة أو نشيدا
ليس ضوءاً على سوالف فله
وطني غضبة الغريب على الحزن
وطفل يريد عيدا وقبله

ويقول السياب:

مطفأة هي النوافذ الكثار

وباب جدّي موصد وبيته انتظار

وأطرق الباب فمن يجيب، يفتح؟

تجيبني الطفولة، الشباب منذ صار،

تجيبني الجرار جف ماؤها فليس تنضح

بويب غير أنها نذر ذر بالغبار

ومن الشعر السوداني بحب الوطن:

وحملت نجمتك الانيقة في فؤادي

ومشيت نحوك فانتهيت الى بلادي

ورسمت وجهك في جبين الحلم

في موج الورق

وغفوت في صدر الشفق

استقبل الميعاد منك فلم يعد

لي من سمائك غير أطياف الأرق

يا همسة سكبت حبيبات الندى الحانها

يا وردة العطر الذي

غسل الدواخل بالعبق
ميلادك الآتي
بكل مواسم الافراح نحوي ليته
ينهى عن الحزن المقدس يأتني
بالعشق والمطر الملون والشبق
ان جاء يخبرك الحنين
عن اشتياقي
والهنيهات التي ذابت
من الصبر المزيف والقلق
فتأكدي بالحق انى لم ازل
أسمو على قمم المشاعر سامقاً
كالبرق في زهو السهى

وفي قصيدة انا سوداني:
كل اجزائه لنا وطن
اذ نباهي به ونفتتن
نتغنى بحسنه أبداً

دونه لا يروقنا حسن
لو هجرناه فالقلوب به
ولا في ربوعه سكن

ويقول الشاعر السوداني:
وطني عليك تحيتي وسلامي
وقف بحلّي غربتي ومقامي
وطني إليك أحنُ في سفر في وفي
حضري أجل وبيقظتي ومنامي
وطني ولي بك ما بغيرك لم يكن
من كوثر عذب ودار سلام
وطني وإن نقلت شذاك لي الصبا
هاجت شجوني وتفتح كلامي
وطني ويلويني لدى خطراتها
ذكر الصبا ومراتع الآرام
وطني وأدعو في ظلام الليل أن
لا يبتليك الله بالظّلام

[٩]

في روسيا:

حطت الطائرة في مطار شرميتفا في موسكو عاصمة الأتحاد السوفيتي يوم ١٩٨٥/٩/١٧م وكان في استقبالهم في المطار ممثلون من اتحاد الطلبة السودانيين، ومندوب من وزارة التعليم العالي السوفيتي وبعض من الطلاب الاخرين من أقارب بعض الوافدين.

بعد حفاوة الأستقبال والبهجة تم نقلهم في باصات الى فندق جامعة موسكو الحكومية وهوعبارة عن قسم داخلي للطلاب الأجانب الوافدين لأول مرة، وأثناء ذلك شاهدو الأبنية المرتفعة والجميلة والحدائق المرتبة حتى خيل للبعض أنهم داخل الجنة، وفي الفندق وجدوا طلاب من دولٍ شتى تعارفوا معهم، وكان يرافق الطلبة ممثلون من الجانب الروسي وهم طلاب في مرحلة التطبيق مسؤولون عنهم ومعهم بطاقات تضمنت الأكل لكل الوافدين الجدد ويقومون بالترجمة والمساندة في توجيه

الطلاب وتلبية الاحتياجات اللازمة.

والحقيقة أن هذه التجربة تخدم الطرفين حيث يستفيد الطلبة الروس من تطبيق ومشاركة اللغة الأجنبية التي يدرسونها في كليات اللغات المختلفة، فضلا عن استفادة الطلاب الوافدين من خلال الرفقة والمتابعة وتوضيح وتذليل الصعوبات، وعلى أي حال هي تجربة ممتعة وجديرة بالاهتمام، وموسكو مدينة كبيرة، ومثيرة، وتمثل عاصمة الاتحاد السوفيتي، وهي أكبر مدن الاتحاد فهي مركز السياسة والأقتصاد، والثقافة، والمالية، والتعليم، والنقل، وهي من المدن العالمية وتقع على نهر موسكفا في المنطقة الاوربية، وكانت موسكو سابقا عاصمة الإمبراطورية الروسية لثلاث سنين (١٧٢٨ -١٧٣٠م)، ولروسيا القيصرية، ومن ثم عاصمة الاتحاد منذ عام ١٩١٧م، ويقع فيها الكرملن الذي يحتوي على منزل الرئيس الروسي، ومقر البرلمان الذي يسمى مجلس الدوما، ومجلس الأتحاد.

يقع في موسكو المركز الأقتصادي والعلمي والمرافق

الإدارية المهمة، وتمتلك المدينة نظام نقل معقد يشمل أربعة مطارات دولية وتسع محطات للسكك الحديدة، ونظام المترو الأكثر ازدحاماً في العالم بعد طوكيو، والذي يتميز بهندسته المعمارية الفريدة ذات الاعمال الفنية الرائعة، أكتسبت المدينة عدة تسميات منها روما الثالثة، وبيضاء الصخر، العريش الأول ومدينة الأربعة والأربعين، ثم تسمية المدينة على أسم النهر الذي يخترقها، ويعتقد أن مؤسسيها من القبائل السلافية، وكان ذلك في بداية القرن العاشر، ومن الجدير بالذكر أن موسكو كانت قد تعرضت للحرق وقتل سكانها عام (١٢٣٧ -١٢٣٨م) عندما أحرق المغول المدينة برمتها، ثم تعافت المدينة في نهاية القرن الثالث عشر خلال حكم داينبل الكسندروفيش، واصبحت عاصمة لدوقية موسكو المستقلة، و توسعت موسكو، وتحولت الى امارة مستقرة ومزدهرة، وعرفت باسم دوقية موسكو، وجذبت عدداً كبيراً من اللاجئين اليها من مختلف أنحاء روسيا، ثم تطورت في عهد إيفان الأول، وفي عام

١٣٨٠م قاد الأمير دمتيري دونسكوي جيش روسي متحد، وأنتصر ضد التتر، وفي عام ١٤٨٠م إستطاع إيفان الثالث من إيقاف حكم التتر وأصبحت موسكو مركزاً وقوه لروسيا تحت حكمه، و في عام ١٥٧١م قام تتار القرم بمهاجمة موسكو حارقين فيها كل شيء عدا الكرملين. وفي عام ١٦٠٩م قام الجيش السويدي بقيادة الكونت جيكوب دي لاجاردي وأفرت هوم بالسير من فليكي - نونفورود الى موسكو لمساعدة القيصر فاسيلي شويسكي ودخلوا موسكو منتصرين عام ١٦١٠، وأوقفوا التمرد ضد القيصر، لكن مغادرتهم مبكراً في العام ١٦١١ لموسكو سهل عملية غزوها من جديد من قبل الجيش البولندي واللتواني خلال الحرب البولندية الموسكوية (١٦٠٥ - ١٦١٨م)، وتوالت المعارك في (١٥٧٠ -١٥٧١م)، ومن بعد ذلك إجتاح موسكو مرض الطاعون، ومما يذكر أن موسكو في عام (١٦٥٤ -١٦٥٦م) كانت قد خسرت مكانتها كعاصمة، وبناءً على ذلك تم تأسيس سانت بطرسبورغ على يد بيتر العظيم عام ١٧١٢م. في العام

١٨١٢م غـزا الجـيش الفرنسـي موسـكو ممـا حـدا بأهـل موسكو الى حرق المدينة والخروج منها بينما كانت قوات نابليون تقترب منها، وما إن واجههم البرد القارس إضافة الى هجمات القوات المسلحة الروسية التي أدت الى قضاء حتـف أكثـر مـن اربعمائـة ألـف شـخص مـن الجـيش الفرنسي ومن ثم ولوا مدبرين الى فرنسا خائبين في عام ١٩١٧ أصـبحت موسـكو عاصـمة الاتحـاد، ومـرةً أخـرى تتعـرض للغـزو في عـام (١٩٤١ -١٩٤٥م) علـى يـد الالمـان النازيين.

تمتـاز هندسـة موسـكو بـالفرادة والروعـة، وتقـع في موسـكو كاتدرائيـة القـديس باسـيل، وقبـاب تشـبه في شـكلها شـكل البصـل، وكاتدرائيـة المسـيح المخلـص، والشقسقات السبع. أهتم جوزيف ستالين كثيراً بعمران مدينة موسكو الذي تميز عن كل مدن العالم بطابعها المعمـاري الفريـد، ويعـود الفضـل لكـثير مـن المهندسـين المعمـاريين تطـور مدينـة موسـكو، وعلـى راسـهم المهنـدس المعمـاري فلاديمـير شـوخوف الـذي سـاهم في بنـاء كـثير

من المعالم فيها مثل برج شوخوف وبرج الشبكة الروسية للأعلام والمتجر المركزي في الساحة الحمراء التي تميزت باختلافها وتميزها عن كل ساحات العالم، وأكتسبت شهرتها أثناء عصور مختلفة، والشقسقات السبع، وهي عبارة عن سبع مباني تشبة الكاتورائية، وسميت عمارتها بالعمارة القوطية الستالينية.

يوجد في موسكو ما يقارب ٩٦ متنزهاً و١٨ حديقة، وفيها حوالي أكثر من ٤٥٠ كلم من المناطق الخضراء، وتضم موسكو تركيبة متنوعة من السكان وهم:

- السلافيون الشرقيون
- الروس
- الاوكران
- البلاروس
- القوقازيين
- الأرمن
- الاذريف
- الجورجين
- الشيشان

- الاوستيسي
- التتار
- الموردوفيني
- التشوناشيين
- روسيا الوسطى
- الاسيويين

في موسكو مجموعة متنوعة من الأديان أولها المسيح الارثودكس واليهود والمسلمون وسواهم. وتضم موسكو حوالي ١٦٠٠ كنيسة وعدة مساجد. تمتاز مدينه موسكو بشوارعها الفارهة وإتساعها ودقة تنظيمها وثراءها المعماري ونظافتها، ومن الجدير بالذكر أن النظام الأشتراكي السوفيتي قد طور العاصمة كثيراً، وأضاف لها كثيراً من الأبنية الجديدة ذات التصاميم المعمارية الفريدة ناهيك عن أنه حافظ على تراث المدينة الموروث وصيانته وإدامته ليكون رمزاً خالدا في المدينة. استمرت فتره بقاء الطلبة الجدد في موسكو لمدة يومين، وفي اليوم الثالث بدأ توزيعهم على مدن الأتحاد المختلفة، فكان نصيب خلف مدينة كراسنودار الروسية، اما أخيه طارق

فكانت مدينة باكو عاصمه أذربيجان، والاخرين توزعوا على المدن الأخرى.

الحقيقة ان وزارة التعليم العالي الروسية تعتمد على مجموعة من المعايير في توزيع الطلبة حيث المقاعد المتوفرة إضافة الى عدد الطلاب ومن دول مختلفة ويجري هذا وفق دراسة وهدف مسبق وهذه المفاهيم تم معرفتها لاحقاً.

تم نقل الطلبة في مجاميع وعلى التوالي الى محطة القطار المركزية في العاصمة موسكو، بعد أن توادعوا مع بعضهم البعض في الفندق متمنين النجاح والتوفيق والصبر، وبينما كان كل شخص منهم يعيش حالة من الترقب والانتظار الى ماسيؤول اليه وضعه القادم، ثم ان مشاهد الوداع والفراق كثيراً ما تثير الشجون كونها حالة إنسانية، وكثيراً ما تكون الدموع حاضرة ترطب الوجنتين عكس مظاهر الأستقبال التي يكون فيها اللقاء والعناق حيث تسود الفرحة والأبتسامة.

كان نصيب خلف وبعض زملاءه مدينة كراسنودار والزمن بين موسكو والمدينة الجديدة (٧٢) ساعه بالقطار، و كانت هذه المرة الأولى في حياتهم يركبون فيها القطار، والقطار الروسي يحتوي على كابينات، وفي كل كابينة أربعة أسرة إثنان في الأسفل وإثنان في الأعلى متقابلين مع بعضهم وفي الأسفل بينهم منضدة مشتركة للجميع بجانب الشباك ولكل سريرعلوي سلم حديدي وبجانب السرير ضوء يستخدم للقراءة والنوم، والشباك يطل على خارج القطار وفيه ستارة ويربط بالكابينات ممر طولي يمتد على طول الفاركون، وفي بداية الفاركون كابينة الخدمة المخصصة لمسؤولة الفاركون وكثيراً ما تكون إمراة، و في نهاية الفاركون تقع المرافق الصحية. ويحتوي الممر الرابط على نوافذ تطل على الجهة الثانية للقطار، ويمر إثناء سير أو توقف القطار باعة متجولون يبيعون الحليب واللبن، إضافة الى ما تقدمه مسؤوله العربة من الشاي والأفرشة لكل رحلة، ويومياً يستبدلون الافرشة، والاغطية- والمناشف لكل

راكب اضافة الى ذلك فأن القطار يتوقف في مدنٍ شتى على الطريق، ويصعد ركاب جدد، ومع خلف كانوا ثلاث بنات سودانيات وثلاثة طلاب أيضاً سودانيين وسرعان ما تطورت العلاقة مع بعضهم حتى اصبحوا وكأنهم عائلة واحدة ينتظرون القادم من الأيام بترقب شديد ورغم ذلك كانوا فرحين، وفي نفس الوقت كانوا يشعرون بالغصة لتفريقهم عن زملاءهم الباقين وبالذات خلف لتفرقته عن أخيه طارق.

يقول الشاعر:

ما أقول ان الصدر ضايق أقول

الكون فيني ضاق

ما أقول إن غيبتك صعبه أقول البعد ينهيني

يقول عنترة بن شداد عن الفراق:

لِمَن طَلَلٌ بِوادي الرَملِ بالـي ... مَحَت آثارَهُ ريـــحُ الشَمالِ

وَقَفتُ بِهِ وَدَمعي مِن جُفوني ... يَفيضُ عَلـى مَغانيهِ الخَوالي

أُسائِلُ عَـــن فَتاةِ بَني قُرادٍ ... وَعَن أَترابِهـــا ذاتِ الجَمالِ

وَكَيفَ يُجيبُني رَســمٌ مُحيلٌ ... بَعيدٌ لا يُعنُ عَلـــى سُؤالِ

إِذا صـاحَ الغُرابُ بِهِ شَجاني ... وَأَجـرى أَدمُعي مِثلَ اللآلي

وَأَخبَرَني بِأَصنـــافِ الرَزايا ... وَبِالهُجرانِ مِـن بَعدِ الوِصالِ

غُرابَ البَينِ ما لَكَ كُـلَّ يَومٍ ... تُعانِدُني وَقَد أَشغَلتَ بالـي

كَأَنّي قَد ذَبَحتُ بِحَدِّ سَيفـي ... فِراخَكَ أَو قَنَصـتُكَ بِالحِبالِ

بِحَقِّ أَبيكَ داوي جُرحَ قَلبي ... وَرَوِّح نارَ سِرّي بِـــالمَقالِ

ويقول الشاعر معروف الرصافي:

أقول لهم وقد جدّ الفراق

رويدَكم فقد ضاق الخِناقُ

رحلتم بالبدور وما رحِمتم

مَشُوقاً لا يبوخ له اشتيــاق

فقلبي فوق ارؤسكم مطــار

ودمعي تحت ارجلكم مراق

ويقول كريم معتوق:

لا أحملُ العُقَد القديمةَ

فالسلامُ على ضياعكِ من دمي

سكتَ الكلامْ

فلتأذني لي مرةً أخرى لأعُلنَ سرَّ غربتنا

ويقول الشاعر:

زف الرحيل وحان ان نتفرقا فإلى

اللقا يـــــــاصاحبي الــى اللقا

***

[١٠]

وصل بهم القطار نهاراً يوم ١٩٨٥/٩/٢٢م الى محطة قطار كراسنودار، وكان في استقبالهم عند محطة القطار مندوب من الجامعة، وكان الجو شديد البرودة ترافقه أمطارُ غزيرةُ، ومثلت هذه الظروف الجوية المفاجأة الأولى لخلف وزملاءه، وسرعان ما نقلوهم الى القسم الداخلي. وضمت الباص خلف وزملاءه إضافة الى عدد غير قليل من الأجانب من دولٍ شتى، طلاب من (٦٥) دولة، وبالتأكيد هناك اختلاف في اللغة والتقاليد وبعض الطباع، لكن الوضع سرى بشكل ما، جمعتهم صفوف الدراسة معاً، والمفاجأة الثانية كانت، حيث علموا ان القسم الداخلي مختلط للإناث والذكور، وسرعان ما قسموا الطالبات معاً والطلاب كل اثنين في غرفة واحدة وبعض الغرف كانت تضم أربعة من الطلاب، وسرعان ما تم تجهيزهم بالأغطية والأسرة من قبل مسؤولة القسم الداخلي التي رحبت بهم وكأنهم

أهل الدار، ووجدوا أن القسم الداخلي يحتوي على نظام تدفئة مركزية يعتمد على الماء الحار الذي تزوده المدينة، وبطاريات الغرف تتوزع في الغرف كافة فضلاً عن الممرات، ويحتوي كل طابق على حمامات وفي وسط كل طابق مطبخ عام مشترك، وتتكون بناية القسم الداخلي من خمسة طوابق، وتدير القسم الداخلي موظفة مسؤولة عن تلبية كافة الاحتياجات فضلاً عن إستعلامات عادةً ما تقودها عدة نساء كبيرات في السن يتناوبن مع بعضهم ليل نهار، ويعرفن كل الطلاب بل وحتى الضيوف، وتقع الاستعلامات عند مدخل القسم الداخلي.

رحب الطلاب السابقون بالطلبة الجدد سواء كانوا سودانيين ام من بلدان أخرى، وسرعان ما نمت علاقات صداقة حميمة، لازالت ذكراها قائمة في نفوسهم، ولا زالوا رغم تقادم السنين يفرحون حين يلتقون مع بعضهم. كان الطلاب متعددي الديانات والمذاهب وذوو إنتماءات شتى سواء من أسيا أو أفريقيا

ومن أمريكا اللاتينية، والهند، وسواها من البلدان، وسرعان ما تطورت العلاقات في صفوف الدراسة حين تم تسجيلهم في الكلية التحضيرية التي عادةً ما يبدأ فيها تعلم اللغة الروسية، ومن ثم الدروس العلمية الأخرى مثل الرياضيات والفيزياء وغيرها من المواد العلمية الأخرى وثم تقسيم الطلبة في صفوف دراسية وبدأت المشكلة الأولى في صعوبة تعلم اللغة الروسية، حتى خيل لهم إنها من الصعوبة البالغة في تعلمها أو النطق بها، لكن الأمور تيسرت لان الروس أصحاب تجربة عميقة في هذا المجال، وكانوا صبورين ويستحقون الشكر والثناء والتقدير. وأثناء هذه الفترة تم تواصل الطلاب مع ذويهم عبر الرسائل البريدية التي وصلت الى اغلب الطلاب عدا خلف الذي لم يستلم اية رسالة مما أثار في نفسه شجون كثيرة وأسى والحقيقة إن خلف كان مخطئاً في إرسال العنوان الصحيح مما حذا بزميله السوداني الذي يقاسمه الغرفة واسمه خالد أبو القاسم، الذي أصبح مهندساً فيما بعد، بأن يكتب رسالة الى أهله يرجوهم فيها كتابه رسالة الى زميله خلف تعاطفاً معه،

وهذا التعاطف ينم عن نبل وحسن الاخلاق. ولكن بعد مرور شهرين تغير الحال واستلم خلف الرسالة الأولى من أهله، وكانت فرحته لا توصف، وعلى أثر ذلك أقام خلف حفله حسب الإمكانيات البسيطة، دعا فيها جميع معارفه وزملاءه احتفاءً بهذه المناسبة المفرحة. والطريف بالأمر كان الحال عندما تصل رسالة لأي من الطلاب السودانيين يجتمعون في غرفة أحدهم، ويبدأون بقراءتها علناً أمام الجميع غير أن قلقهم كان واضحاً عن وضع السودان السياسي المرتبك والمعقد بل الملتهب وكانت أخبار الوطن تفرح الجميع وتشعرهم بالراحة النفسية. ومن أجمل تلك الأيام سرت العادة بأن يجتمع الطلاب السودانيين في غرفة أحدهم بالتناوب ويتقاسمون ما تيسر من طعام يشتركون به متألفين ومتحابين في الله والوطن.

يقول إبن زريق البغدادي من الغربة، وهو ذاهب الى بلاد الاندلس تاركاً بغداد باحثاً عن سعة في الرزق في قصيدة لا تعذليه.

قصيدة قمر في بغداد

لا تَعذَلِيـــــه فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُـــهُ
قَد قَلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُـــــــهُ
جاوَزتِ فِي لومـــه حَداً أَضَرَّ بـهِ
مِن حَيثَ قَدرتِ أَنَّ اللـــوم يَنفَعُـــــهُ
فَاستَعمِلِـــي الرِفق فِي تَأنِيبِـهِ بَدَلاً
مِن عَذلِهِ فَهُوَ مُضنى القَلبِ مُوجعُهُ
قَد كانَ مُضطَلَعاً بِالخَطبِ يَحمِلُـــهُ
فَضُلِّعَتْ بِخُطُـــوبِ الدهرِ أَضلُعُهُ
يَكفِيـهِ مِن لَوعَـةِ التَشتِيتِ أَنَّ لَـــهُ
مِنَ النَـــــوى كُلَّ يَومٍ ما يُـــروعُهُ
ما آبَ مِن سَفـــــرٍ إِلّا وَأَزعَجَـــهُ
رَأيُ إِلى سَفَـــــــرٍ بِالعَزمِ يَزمَـعُهُ
كَأَنَّمـــا هُوَ فِي حِلٍّ وَمُرتحـــــلٍ
مُوَكَّلٍ بِفَضـــــاءِ اللَهِ يَذرَعُـــــهُ
إِذا الزَمـــــانَ أَراهُ في الرَحِيلِ غِنىً
وَلَو إِلى السَدّ أَضحـــى وَهُوَ يُزمَعُهُ

تأبى المطـــامعُ إلا أن تُجَشّمـــه
للرزق كـــــداً وكم ممن يودعُـــهُ
وَما مُجـــــــاهَدَةُ الإنسانِ توصِلَه
رزقَاً وَلا دَعَـــةُالإنسانِ تَقطَعُـــــهُ
قَد وَزَّع اللَهُ بَيـــــنَ الخَلقِ رزقَهُـمُ
لم يَخلُق اللَهُ مِن خَلـــقٍ يُضَيِّعُـــهُ
لكنهم كلفوا حرصـــــاً فلست ترى
مسترزقـــــاً وسوى الغايات تصنعهُ

ويقول بدر شاكر السياب:

يا غربة الروح في دنيا من الحجر
والثلج والقار والفولاذ والضجر
يا غربة اروح لا شمس فأئتلق
فيها ولا أفق
يطير فيه خيالي ساعة السحر
نار تضيء الخواء البرد تحترق
فيها المسافات تدنيني بلا سفر

من نخل جيكور أجني داني الثمر
نار بلا سمر
إلا أحاديث من ماضي تندفق
كأنهن حفيف منه أخيلة
في السمع باقية تبكي بلا شجر
يا غربة الروح في دنيا من الحجر
مسدودة كل آفاقي بأبنية
سود وكانت سمائي يلهث البصر
في شطها مثل طير هده السفر
النهر والشفق
يميل فيه شراع يرجف الألق

وكانت مدينة كراسنودار الروسية إحدى مدن الاتحاد السوفيتي، ويقدر عدد نفوسها بحوالي ٧٠٠٠٠٠ نسمه، وقام بتأسيسها أحفاد توزان عام ١٧٩٢ من منطقة زبورجية، وقد هاجروا الى أراضي القوبان الخصبة بأمر من الإمبراطورة كاترينا الثانية، بعد أن قامت روسيا بضم الأراضي الواقعة في شمال غرب القوقاز اليها

نتيجة لانتصاراتها على تركيا، وكان إسمها وقتذاك بكاترينـدار نسـبة الى الإمبراطـورة كاترينـا الثانيـة، وكانت المدينة عبارة عن معسكر ثم تحولت تدريجياً الى قلعـة حـين قـام القـوزان بأنشـاء (٤٠) منـزلاً قوزانيـاً، وكانـت هـذه المسـتوطنات الصـغيرة تحـيط بكنيسـة الثالوث المقدس، ثم تطورت هذه المستوطنة في عام ١٧٩٤ الى (٦٠٠) نسمة موزعين على (١٠٤) دار سكن، ومنذ عام ١٨٦٠م وتحولت يكاترينا الى مدينة وحصلت على شعارها الخاص، ونظام إدارة، مما شجع المهاجرين الروس من مناطق مختلفة للانتقال الى المدينة، وبتشجيع من السلطات الحاكمة آنذاك زاد عدد السكان حيث وصل الى ٥٠٠٠٠ نسمة خلال مدة عشرين عاماً. وفي سبعينيات القرن العشرين تم مد سكة حديد وتم انشاء محطة قطار، مما ساعد في تطوير المدينة وتحولت تدريجيا الى مركز تجاري وصناعي ضخم. كانت المدينة اثناء الحرب الاهلية في روسيا (١٩١٨ -١٩٢١م) مقراً للمقاومة المعادية للبلاشفة ومركزاً للحرس الأبيض، ثم استولت

قوات الجيش الأحمر عام ١٩٢٠م على المدينة، وأطلقت عليها اسم كراسنودار بدلاً من يكاترينداز.

في ٩/اب/١٩٤٢م تم احتلال المدينة من قبل القوات الألمانية، وتحررت منهم عام ١٩٤٣م في شهر شباط على يد الجيش الأحمر، بعد انتصاره على النازيين في معركة ستالينكراد.

تعد مدينة كراسنودار إحدى المدن الروسية القليلة التي شهدت نمواً سكانياً نتيجة الهجرة اليها من مناطق مختلفة سواء من روسيا او القوقاز والتي بلغت معدلاتها ١٥٪ من عدد السكان ويعتقد أن عدد السكان الحقيقين فاق ١٢٠٠٠٠٠ نسمة، في حين الاحصائيات الرسمية تقول إن عدد السكان ٧٠٠٠٠٠ نسمة ولقد تطورت المدينة الى إقليم كراسنودار الروسي بسبب كثرة جذبه للمهاجرين السوفيت على اختلاف أنواعهم، وخاصة منطقة سوجي التي تقع على البحر الأسود والتي تعتبر من أجمل المدن والمنتجعات في العالم برمته، ويعد إقليم كراسنودار الروسي أقليماً زراعياً ينتج محصولاً وفيراً

من القمح.

وبناء على ذلك تطورت صناعات مختلفة في المدينة حيث تميزت المدينة بصناعة الأليات الزراعية، وصناعة المكائن، ثم تطورت فيها أنواع مختلفة من صناعات الكيميائية والصناعات الكهرو حرارية بالإضافة الى تميز المدينة بالصناعات الفضائية.

تحتوي المدينة على مجموعة كبيرة من الجامعات والمعاهد والأكاديميات مثل جامعة كوبان للهندسة التي تأسست عام ١٩١٨م وغيرها من المعاهد والجامعات المتنوعة الاختصاص، وتضم المدينة مجموعة من الحدائق الغناء، وتمتاز عمارتها بالعمارة الأشتراكية التي تمثل الحقبة السوفيتية بكل تفاصيلها، ومن شوارعها الجميلة شارع الكراسنة، فضلا عن طيب وكرم أهلها الذين استقبلوهم بحفاوة وتكريم يستحقون عليه الذكر والامتنان.

ويقول الشاعر:

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا
وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسٌ فَوائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ وَاِكتِسابُ مَعيشَةٍ
وَعِلمٌ وَآدابٌ وَصُحبَةُ ماجِدِ
وَإِن قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَمِحنَةٌ
وَقَطعُ الفَيافي وَاِكتِسابُ الشَدائِدِ
فَمَوتُ الفَتى خَيرٌ لَهُ مِن حَياتِهِ
بِدارِ هَوانٍ بَينَ واشٍ وَحاسِدِ

ويقول شاعر اخر:

وكيف يذوق النوم من عدم الكرى
ويسهر ليلا والأنام رقود
وقد كان ذا مال وأهل وعزة
فأضحى غريب الدار وهو وحيد
له جمرة بين الضلوع وأنه
وشوق شديد ما عليه مزيد
تولى عليه الوجد والوجد حاكم
يبوح بما يلقاه وهو جليد

[١١]

كانت الكلية التحضيرية في مدينة كراسنودار تضم طلاباً من بلدان شتى تجاوزعددهم خمسة وستين بلداً اجنبياً، وذات لغات متعددة، وتقاليد مختلفة وأديان متنوعة، لكن سرعان ما جمع شملهم الروس وأصبحت اللغة الروسية عاملاً مشتركاً اضافةَ الى النظام والتقاليد الروسية التي بدأوا يتطبعون عليها، ومن الجدير بالذكر أن أغلب الطلاب القادمين من تلك الدول هم من شريحة اجتماعية متوسطة او معدومة، لا بل اغلبهم من طبقات فلاحية او عمالية كادحة، لكنهم جميعاً بلا إستثناء كانوا طموحين، لابل قل ذو طموح متقد وكفى. كانت إدارة الكلية التحضيرية تهتم بالطلبة الجدد وتولي العادات والتقاليد الشعبية والفلكلور أهمية استثنائية، فلم تترك مناسبة وطنية لأي من البلدان إلا وقامت بتهنئتهم والاحتفال معهم وخاصةً الأعياد الرسمية وأعياد الاستقلال.

ترك هذا الاهتمام أثراً إيجابياً في نفوس الطلبة الأجانب، فيما توسعت أفاق ومدارك الطلاب أكثر من خلال الاحتكاك مع الثقافات والشعوب المختلفة، ولاسيما وان العلاقات اتسمت بالود والإنسانية والتعاون وتعلموا إحترام الاخرين وسماع الرأي الاخر، لابل الآراء المتعددة الأخرى، وتعرفوا على تقاليد مختلفة وأديان متنوعة، حتى شمل تاريخ تلك البلدان اضافةً الى توسع المعرفة عن تاريخ الاتحاد السوفيتي، والذي كان أحد دروس الكلية التحضيرية، والمدهش في كل ذلك تواضع العلماء الروس والأساتذة ورغبتهم في تعليم الاخرين وانتشالهم من أنفاق مظلمة كثيره تمر بها تلك البلدان.

لعبت زيادة الطلاب السودانيين الذين سبقوا الطلاب الجدد في الدراسة في المدينة دوراً بارزاً ومؤثراً في تخفيف الصعاب والغربة والبعد عن الأهل، لا بل تعدى إلى ذلك الى حل المشاكل التي تبرز بين حين وأخر، وكان السودانيون يدرسون في المدينة باختصاصات

متنوعة عدة و في مراحل مختلفة وشكلت زياراتهم لخلف وزملاءه الشبه يومية على هذا النحو من الفائدة المتنوعة، فضلاً عن قيام إداره القسم الداخلي تنظم حفلة راقصة كل أسبوع في قاعة داخل القسم الداخلي يطلق عليها (ديسكوتيكة)، تكون عادة يوم السبت مساءً من كل أسبوع كون يوم الاحد هو العطلة الرسمية للبلاد عكس ما تعودوا عليه في بلدانهم بأن تكون العطلة يوم الجمعة.

سهلت حفلة الرقص هذه على التعارف والاحتكاك بين جميع طلاب القسم الداخلي، وهذا الاحتكاك الثقافي والاجتماعي، يتطور الى صداقات أخرى غير صداقات الصفوف الدراسية، وكانت إداره الكلية التحضيرية تعتمد منهاجاً دراسياً متكاملاً في تعليم اللغة الروسية يتوجب على الطالب فيه حفظ عشرين كلمة كل يوم على أقل تقدير، وكان الأساتذة يتمتعون بصبر يستحقون عليه الثناء والتقدير.

مرت عليهم أحداث السنة الدراسية الأولى في الاتحاد

السوفيتي سريعاً بلمح البصر رغم كل الصعوبات التي عادة ما تواجه الطلبة الجدد، وخاصة في التطبع والانصهار مع المجتمع الجديد ورغم كل الذي جرى لكن حلاوة تلك الأيام بقيت عالقة في الذاكرة.

يقول الشاعر:

بَكيتُ عَلـــــى الشَبابِ بِدَمعِ عَيني
فَلَم يُغـــــنِ البُكاءُ وَلا النَحـــيبُ
فَيـــا أَسَفا أَسِفـــــتُ عَلى شَبابِ
نَعاهُ الشَيـــــــبُ وَالرَأسُ الخَضيبُ
عَريتُ مِنَ الشَبـــــابِ وَكانَ غَضّاً
كَما يَعرى مِنَ الوَرَقِ القَضيـــــبُ
فَيا لَيتَ الشَبابَ يَعـــودُ يَومـــاً
فَأُخبِرُهُ بِما صَنَـــعَ المَشيـــب

***

[١٢]

جرت العادة عند الجالية السودانية ان تعقد اجتماعاً سنوياً مشتركاً يضم الطلاب السودانيين من مدنٍ مختلفةٍ داخل جمهوريات الاتحاد السوفيتي، ويعقد في ١/١ من كل عام مستغلين عطلة الميلاد وبداية السنة الميلادية الجديدة، التي تصادف في ١٩٨٦/١/١م، حيث تم عقد الأجتماع أو إن صح التعبير مؤتمر في مدينة مينسك عاصمة روسيا البيضاء ويستمر المؤتمر لمده ثلاثة أيام يتخلله برنامج متكامل معد سلفاً.

ركب خلف وجميع زملاءه السودانيين في المدينة القطار من المحطة الرئيسية في مدينة كراسنودار قاصدين مدينة مينسك، وعند وصولهم كان في إستقبالهم مجموعة من الطلاب السودانيين ومن محاسن اللقاء والصدفة أنهم التقوا بجميع الطلاب الذين كانوا معاً في الطائرة وهي تقلع من مطار الخرطوم وعددهم ٦٥ طالباً نحو مطار موسكو وكانت

الفرحة كبيرة لا توصف، وكأنهم عائلة واحدة كانت مشتتة جمعها الله برحمته الواسعة.

طرح في المؤتمر كافة المشاكل والصعوبات التي تواجه الطلاب في الاتحاد السوفيتي، وتناول المؤتمر أيضاً الاتي:

- الخطاب السياسي
- الاحتفال بعيد الاستقلال السوداني
- الخطاب الثقافي

وفي نهاية المؤتمر تم انتخاب لجنة تنفيذية من الطلاب السودانيين الدارسين في العاصمة موسكو للاهتمام ومتابعة شؤون الطلاب السودانيين في جميع مدن الاتحاد السوفيتي، وتخللت أعمال المؤتمر منهاجاً ثقافياً يطلق عليه (سوق عكاظ) يقدم فيه الطلاب موادهم الثقافية المختلفة، ويتنافسون مع بعضهم البعض، وفي اليوم الثاني يقومون باستقبال الطلبة الجدد والاحتفاء بيهم، وفي اليوم الأخير يتم الاحتفال بعيد إستقلال السودان.

يبدأ المنهاج الثقافي في الساعة الحادية عشر ليلاً ويستمر حتى الصباح، ويكون في أحد الأقسام الداخلية التي يتم اختيارها من قبل اللجنة التنفيذية، وبالتنسيق مع الجانب الروسي، ومن الجدير بالذكر أن هذا المنهاج الثقافي كان له تأثيرٌ بالغُ على الطلاب، على إختلاف مشاربهم. ومن خلاله تبرز المواهب الثقافية المختلفة في مجالات شتى مثل الغناء والشعر والموسيقى والتمثيل والكوميديا فضلا على الفلكلور السوداني. أما عيد الأستقلال السوداني الذي يصادف تاريخه في الأول من كانون الثاني من كل عام، حيث نال السودان إستقلاله عن إنكلترا ومصر، حيث كانتا تديران البلاد بشكل مشترك وأستمر الحكم الإنكليزي المصري ٥٨ عاماً. ومن الجدير بالذكر أن السودان حصل على الأستقلال بدون صراع أو عنف حين عقد إحتفالً خاصً في الأول من كانون الثاني عام ١٩٥٦م وأعلن السيد إسماعيل الازهري رئيس الوزراء السوداني برفع العلم الجديد علم دولة السودان.

يقع السودان في شمال شرق أفريقيا ويحده من الشمال جمهورية مصر والجمهورية العربية الليبية في الشمال الغربي، ومن الجنوب جنوب السودان وجمهورية أفريقيا الوسطى من الجنوب الغربي، وأثيوبيا من الجنوب الشرقي، ومن الشرق تقع دولة ارتيريا وتشاد في الغرب، وتشترك مع المملكة العربية السعودية في حدود بحرية.

كانت زيارة خلف وزملائه الى مدينة مينسك عاصمة بلاروسيا تمثل المرة الأولى التي يسافرون فيها خارج حدود مدينة كراسنودار، وتمثل مينسك عاصمة الدولة المتحدة مع الاتحاد السوفيتي وهي أكبر مدن بلاروسيا حيث ضمت الإمبراطورية الروسية بلاروسيا اليها عام ١٧٩٨م، وفي عام ١٧٩٦م أصبحت عاصمة لروسيا البيضاء، وتطورت المدينة خلال القرن التاسع عشر، ثم في عام ١٩٣٠م رصفت وبلطت شوارعها ومساحاتها الرئيسة، وفي عام ١٨٣٦م طبعت فيها أول صحيفة ثم في عام ١٨٤٤م أفتتح فيها أول مسرح وبحلول العام ١٨٦٠م

تحولت مدينة مينسك الى مدينة تجارية مهمة حيث بلغ عدد سكانها ٢٧٠٠٠ نسمة، وأمتازت المدينة بنظافتها ونقاوة جوها وعمرانها وحدائقها الغناء إضافةً الى برودتها.

خلاصة القول أن هذه السفرة الى هذه المدينة التي عقد فيها المؤتمر كانت مثمرة وكثيرة البهجة والسرور وأضفت على خلف وزملائه الشعور بالمسؤولية وساد التضامن بين الزملاء ويمكن القول انها صقلت شخصياتهم التي لا زالت في دور النمو والاكتشاف والمعرفة التي جباهم الله بها.

يقول الشاعر محمد الفيتوري في قصيدته والتي غناها الموسيقار محمد وردي:

في زمن الغربة والارتحال
تأخذني منك وتعدو الظلال
وأنت عشقي
حيث لاعشق ياسودانُ

إلاّ النسور الجبال

يا شرفة التاريخ

يا رايةً منسوجةً

من شموخِ النساءِ

***

[١٣]

انتهت السنة التحضيرية الأولى في الاتحاد السوفيتي وكانوا قد تعلموا اللغة الروسية ولكن لا زال عودهم طرياً، وجاءت العطلة الصيفية حيث توجهوا للعمل في مزارع الدولة والتي كانت تسمى (الكلخوزات)، لجمع الفاكهة ومن خلال هذا العمل التطوعي إستطاع خلف وزملاؤه من التعرف على القرية السوفيتية وكذلك تعرفوا خلال هذه الرحلة على طلاب أجانب من دول شتى رافقوهم في هذه التجربة، وتضمن منهاج الرحلة على برنامج معد سلفاً يتضمن الخروج صباحا بعد الإفطار الذي يتم اعداده عادةً في الساعة الثامنة صباحاً. ثم يتوجه بعدها الطلاب الى إحدى القرى المجاورة التي تقع في اطراف أقليم كراسنودار، وتحتوي القرية السوفيتية على مزارع إشتراكية تعاونية أطلق عليها اسم الكلخوزات، وهي احدى ثمرات الأشتراكية، ثم يعودون في حدود الساعة الواحدة ظهرا. والمعسكرات التي

كان خلف وزملاؤه فيها عبارة عن مخيمات طلابية أعدت لهذا الغرض خصيصاً والكلخوز هو احد اشكال المزارع الجماعية التي تبنتها الدولة الأشتراكية السوفيتية إضافةً الى نوع اخر سمي سوفخوزي وهذان النظامان الزراعيات كانا منهاج الأشتراكية في حل المشكلة الفلاحية والتي تضمنت الفلاحين والإنتاج بعد عام ١٩١٧م عند نجاح الثورة البلشفية، واعتبار هذا المنهاج هو النقيض للنظام الاقطاعي الذي كان سائداً قبل الثورة البلشفية، فالنظام السابق يتكون من الاقنان الفقراء، وأصحاب الأراضي الزراعية الأرستقراطيين، ومن الجدير بالذكر أن هذه المزارع ظهرت أثر التأميم القسري للأراضي الذي كان قد صدرعام ١٩٢٨م، وتعود كلمة كلخوز الى كلمتين (Кооперативная ферма) أي الملكية الجماعية أو التعاونية. ولأن قدرات الفلاحين كانت ضعيفة أو محدودة حين إستلموا الأراضي بسبب طرق الإنتاج القديمة، وبناء على ذلك توجب البدء من الصفر، لتوفير المواد الزراعية الكافية لإعالة المدن،

وتوفير المواد الغذائية، فضلا عن تزويد الصناعة الأخذة بالتطور بالمواد الزراعية اللازمة كالقطن والكتان والبنجر والصوف، إضافة الى تطوير الإنتاج الزراعي الى مستويات أعلى، مما توجب في الكثير من الاحيان تحويل المزارع الصغيرة الى مزارع كبيرة عن طريق تحويل الكلخوزات الى سوفخوزات. والتي تعني المزارع الحكومية التعاونية شأنها شأن المعامل والمصانع التي إستولت عليها الدولة وأخذتها من الرأسماليين لذا سعت السلطة لمساعدة الفلاحيين على تكوين زراعة تعاونية واسعة النطاق مما دفعت القادة الشيوعيين الى محاولة اجتذاب الناس للعمل في الكلخوزات على وعد بجني وحصاد محاصيل عظيمة، وكذلك انتاج هائل من اللحوم. حققت الدولة الروسية منذ عام ١٩٣٣م تطوراً في الإنتاج، وحققت نجاحاً في تجربتها من خلال قيادة دكتاتورية البروليتارية، وبطبيعة الحال إنعكست العلاقة من إقطاعية سائدة على مجتمع فلاحي كان يحلم فيه الفلاح بالحصول على أرض وزراعتها الى مجتمع

إشتراكي يسيطر على الزراعة والإنتاج، ومن خلال العمل الأجتماعي والتعاوني الذي وفر الوقت وسرعة الإنتاج. ساهم توزيع الأراضي على الفلاحين في بناء مجتمع جديد وكذلك بناء إقتصاد إشتراكي يضمن التبادل السلعي في المجتمع الزراعي بنطاق واسع بدل النطاق الضيق وبهذا الصدد كتب جوزيف ستالين قائد اللجنة المركزية آنذاك عن ضرورة تحول الأقتصاد الكلخوزي الى إقتصاد إجتماعي كامل من أجل التحول نحو الأشتراكية. تعود ملكية الأدوات والمكائن الزراعية الى الدولة وللمزارع الجماعية بشكل تام أما الملكيات الصغيرة الأخرى في المزارع التعاونية مثل الدواجن والبيض ملكية خاصة على أن يقدم الفائض منه الى المدينة وعلى أثر ذلك كانت الكلخوزات هي التي تسيطر على الأراضي الزراعي ومن ثم على الفلاحين أيام حكم ستالين شريطة القيام بالعمل الجماعي وبناء على ذلك تشكلت الجمعيات التعاونية لإدارة هذه المزارع. هيأت هذه المخيمات لخلف وزملائه السكن، وأعدت برامج

متنوعة يقدم فيها الطلاب الأجانب على اختلاف مشاربهم في المخيمات فلكلور بلدانهم إضافة الى بعض البرامج الترفيهية التي أعدت لهذا الغرض من قبل إدارة المخيم ونشأت في ما بين الطلبة صداقات متنوعة فضلا عن العلاقات الاجتماعية والصداقات المختفلة التي نمت مع السكان المحليين وبالذات مع الشباب الروس سواء من الذكور أو من الأناث وفي هذا المجتمع الروسي الأشتراكي لا يوجد فرق بين الذكر والأنثى مما سهل عليهم التعارف عن قرب على أوضاع المجتمع الروسي وخصوصياته وتفاصيل معيشتهم وعلاقتهم مع بعضهم، وأكثر ما جذب خلف وزملائه هو كرم هذا الشعب الفياض تجاههم وشدة إحترامهم حتى إنهم لم يشعروا بالغربة أو إنهم دخلاء و أجانب بل بالعكس كانوا متعاطفين جداً معهم، وكان تعاملهم مبني على أسس إنسانية بعد انتهاء مدة العمل في جمع الفاكهة، حصلوا على أجور رمزية مقابل عملهم في المزارع وكانت بحدود (٣٠٠ روبل) أي ما يعادل ٥٠٠ دولار في التصريف

الرسمي الذي كان يعادل الدولار فيه ٠,٦٧ من الروبل الروسي في حين كان المبلغ برمته يعادل اقل من ١٠٠ دولار. على اية حال كانت هذه المبالغ معنوية أكثر مما هي مادية وقرروا التبرع بها طوعيا الى أطفال العالم الثالث والحقيقة كان شعورا منهم بالمسؤولية الأممية.

اتسمت هذه التجربة بالنسبة لخلف والطلاب الشيوعين الأخرين بالأهمية البالغة حيث إطلعوا على الواقع الحقيقي للتجربة الروسية الأشتراكية والتي كثيراً ما راودهم تكريرها وإستنساخها في بلدانهم. توجهوا بعد هذه التجربة الى معسكر استجمام يقع على شواطئ البحر الأسود تابع للأكاديمية الزراعية يسمى تيمويازفا، وضم هذا المعسكر عائلات وطلاباً من مختلف مدن الأتحاد السوفيتي والحقيقة كان الهدف من ذلك هو تعرفيهم على التجربة الروسية وسهولة اندماجهم مع المجتمع الأشتراكي.

والبحر الأسود هو بحر داخلي يقع بين الجزء الجنوبي الشرقي لأوربا وآسيا الصغرى ويتصل بالبحر

الأبيض المتوسط عن طريق البسفور وبحر مرمرة، ويتصل ببحر ازوف عن طريق مضيق كيرتش وروافده من الأنهار الدانوب وبوكي الجنوبي ونهر رابوني ونهر قيزيل ارماك وقناة الدانوب ونهر كامتشيا وكاراسر دبري ونهر الكوبان ونهر الدينستنبر ونهر سقاريا إضافة الى البحار المتصلة به وهو يتمتع بموقع استراتيجي هام حيث على شواطئه تقع كل من البلدان التالية (بلغاريا، رومانيا، أوكرانيا، تركيا، جورجيا بالإضافة الى روسيا) وتطل عليه المدن التالية التي تمثل موانئ مهمة لدولها وهي (بانومي، نورغاز، لونستانيا، جيرسون، هوبان، اسنطبول، كيرتش، منغالية، نانوداري، نونوروسيك، اوديسا، اوردو، بوني، ريزي، سينوب، سامدن، سبفاستوبول، سوتشي، سوزبول، طرابزون، قارنا، بالطا وزونجولداك.

كان مخيم الاستجمام عبارة عن معسكر دائمي لغرض الراحة وتمثل هذه المنتجعات أمكنة تتسم بالطبيعة الخلابة والأجواء النقية وقد إنتشرت مثل هذه

المنتجعات في الأتحاد السوفيتي، ويحتوي هذا المعسكر على أربع عمارات تحتوي كل عمارة على ٢٠ طابقاً وتبعد عن البحر الأسود حوالي ٢٠٠ متر في منطقة تسمى (ماكابسيتا). كانت معيشة خلف وزملائه داخل هذا المعسكر ويقع بالقرب منه نهر يصب في البحر الأسود وتقع على شاطئ النهر غابة فيها بيوت من الاخشاب من جهة اليمين وفي اليسار البحر. كان برنامج الرحلة يستمر من الساعة الثامنة صباحا حيث وقت الإفطار ثم يتوجهون الى البر وبين الساعة العاشرة والحادية عشر صباحاً يعودون الى المعسكر ليمارسون الرياضة على اختلاف أنواعها مثل كرة القدم والطائرة والسلة وكرة اليد وحتى الشطرنج كل حسب إهتمامه ورغبته وبحلول ساعات الظهيرة يتوجهون الى مطعم المخيم لتناول وجبة الغداء ثم يأخذون قسطا من الراحة في السكن وفي المساء يتوجهون الى المسرح للاستماع الى الموسيقى والرقص الذي تعده إدارة المخيم.

ما جلب انتباه خلف وزملائه أن الجميع كانوا في

أعلى درجات الأنضباط والنظام ولم يواجهوا أية مشكلة رغم صعوبة التأقلم، ناهيك عن صعوبة اللغة الروسية، والطريف أن الابتسامة كانت تعلوا الوجوه سواءً من العاملين، أو الضيوف على شتى أصنافهم، وأختلاف أجناسهم، والوانهم، ويسارعون على اختلافهم لتقديم أي عون أو مساعدة، وكان هذا العمل مقصوداً حتى لا يشعرون بالغربة، آو صعوبة العيش كونهم من مجتمع شرقي. لم يتعودوا بعد على عادات المجتمع الجديد الذي له خصوصياته وتقاليده المنبثقة على أسس إشتراكية وانه مجتمع منفتح قضى ردحاً طويلاً في هذه التجربة التي تجاوزت النصف قرن في حينها، والتي حازت على إهتمام عالمي أثار الأعجاب.

كان لخلف صديق ورفيق درب في هذا المعسكر هو الدكتور معاوية عبد القادر علي (لاحقا) والذي يعمل الأن أستاذا في الجامعة الدنماركية الملكية وكانا حينها يحملان معهما كتبا ثقافيه متنوعة يقومان بقراءتها في أوقات الراحة ويتناقشان بمحتواها، حتى أنهما قضيا

أياما جميلة وسعيدة معا لا يزال الطرفان يذكرانها وهي عالقة في ذهنيهما.

انتهت فترة العطلة الصيفية والتي دامت شهراً و٢٨ يوم أي قرابة الشهرين، عادوا بعدها الى الأقسام الداخلية في كراسنودار، وهنا حدثت المفاجئة الكبرى حيث تم توزيع الطلبة خريجي السنة التحضيرية على مدن أخرى وكل حسب إختصاصه، وكان نصيب خلف وبعض زملائِه مدينة اوديسا، التي تقع على البحر الأسود أيضا، ولكنها في أوكرانيا الاشتراكية والتي هي ضمن الاتحاد السوفيتي.

يقول الشافعي:

الدَهرُ يَومانِ ذا أَمنٌ وَذا خَطَرُ
وَالعَيشُ عَيشانِ ذا صَفوٌ وذا كَدَرُ
ما تَرى البَحرَ تَعلو فَوقَهُ جِيَفٌ
وَتَستَقِرُّ بِأَقصى قاعِهِ الدُرَرُ
وَفي السَماءِ نُجومٌ لا عِدادَ لَها
وَلَيسَ يُكسَفُ إِلّا الشَمسُ وَالقَمَرُ

[١٤]

قال الشاعر:

عين تسر إذا رأتك واختـــــــها

تبكي لطـــــول تبـــاعد وفراق

فأحفظ لواحدة دوام ســـــرورها

وعـــــــد التي ابكيتـــــها بتلاق

بعـــد ان ودعـــوا الأصـــدقاء والمعـــارف في مدينـــة كراسنودار ركب خلف وبعض من زملائه طيارة صغيرة مـــن مطـــار المدينـــة متـــوجهين صـــوب مدينـــة اوديســـا، وأســـتمرت رحلـــتهم حـــوالي ســـاعتين، وتم إســـتقبالهم في مطار اوديسا من قبل مندوب الجامعة، ومن ثم توجهوا الى القســـم الـــداخلي الخـــاص بكـــل مجموعـــة حســـب الأختصاص الذي ينوي الطالب دراسته أو حسب القبول الأول وكـــان نصـــيب خلـــف القســـم الـــداخلي الخـــاص بأكاديميـــة الصـــناعات الغذائيـــة لمونوصـــفا لدراســـة هندسة الميكانيك الخاص بصناعة المواد الغذائية، ومن

جميل الصدف التقى خلف بزملاء جاءوا من مدن أخرى للدراسة في اوديسا هم ذاتهم الذين كانوا معه في الطائرة المغادرة من السودان غير أن اكثرهم أوفد لدراسة الطب، وقد جمعتهم مدينة اوديسا من جديد، ولكن هذه المرة صداقة دائمة. دأب خلف خلال الخمس سنوات التالية من الدراسة على الجد والمواظبة، وكان ميالاً لعدم السفر الى السودان خلال العطلة الصيفية بسبب الوضع السياسي المرتبك والمعقد، ولكنه استغل تلك العطل والإجازات الرسمية الأخرى للسفر الى مناطق شتى داخل الأتحاد السوفيتي، مما زاد من معرفته بالمجتمع السوفيتي، فضلا عن توسع علاقاته مع الطلبة الأجانب والروس، حين زار منطقة ممتعة تسمى الحلقة الذهبية لروسيا القيصرية، وهي عبارة عن مدن عدة، تبدأ من مدينة موسكو، وسانت بطرس بورك، وتنتهي بمدينة بروسلاف الدينية والمهمة عند الشعب السلافي، وتعتبر عاصمة دينية لمسيحي روسيا، وكان خلف وزملاؤه من الطلاب الأجانب من جنسيات شتى

يتنقلون في باخرة من نهر الى اخر، والحقيقة كان مجلس مدينة اوديسا ينظم هذه الرحلات، تحديداً الى الطلبة الاجانب المقيمين فيها، وضم المنهاج رحلات الى كلٍ من سوجي الجميلة وغيرها من المدن، واستمرت الرحلة لمدة ثمانية وعشرين يوماً متتالية، ثم سافر في سفرات أخرى، وتيسر له زيارة مدينة مينسك مرةً أخرى، ومدينة طاشقند وسمرقند، ومدنٍ أخرى كثيرة كلها تقع ضمن حدود الاتحاد السوفيتي. وعلى ذكر مدينة بروسلاف الدينية نود الإشارة الى أن الديانة في الاتحاد السوفيتي كانت الغالبية منهم ذي ديانة ارثوذكسية، والبعض كاثوليك، وقسم قليل منهم من الطوائف البروتستانتية فضلاً عن المسلمين واليهود، وديانات أخرى.

تعرض الدين في الاتحاد السوفيتي بعد نجاح الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م للتهميش، وكانت أولى اهداف الدولة الأيديولوجية هي القضاء على الدين والأستعاضة عنه بالإلحاد، وتعرض أصحاب الديانات

على مختلف اشكالها للمضايقة والسخرية، ونشر الالحاد في المدارس وصودرت أغلب الأصول الدينية بعد إتهامات لهم بتراكم الثروات غير المشروعة، وأستندت الدولة الى مقولة ماركس بأن الدين افيون الشعوب. وفي عام ١٩١٨م صودرت جميع ممتلكات الكنائس، وفي عهد ستالين شنت السلطات السوفيتية حملة على رجال الدين، وعلى أية حال، مشكلة الدين كانت حقيقية، ولعلها السبب الرئيسي لعدم تطور الأحزاب الشيوعية في كثير من بلدان العالم وبالخصوص العربية منها.

إستقر خلف في مدينة اوديسا (Одесса) وهي من المدن الكبرى في أوكرانيا، وتقع على البحرالأسود، ويتكلم اغلب سكانها اللغة الروسية، وفيها جامعات كثيرة تزيد على العشرين في مختلف الاختصاصات، وتعد المدينة الثالثة في ترتيبها بعد كييف العاصمة وخاركوف، ويقدر عدد سكانها بأكثر من مليون نسمة، وتعتبر اوديسا عاصمة إقتصادية مهمة حيث تحتوي على أربعة موانئ، وتبعد عن العاصمة كييف حوالي

٧٥٠ كيلومتراً، وفي القرن التاسع عشر كانت اوديسا رابع أكبر مدن الإمبراطورية الروسية بعد كل من موسكو وسانت بطرس بورك ووارسو. وضم لينين اوديسا الى أوكرانيا عام ١٩٢٢م وتعتبر من ادفأ مدن أوكرانيا، ويرتادها أجانب كثر كونها مدينة سياحية وميناء مهماً تمتازعمارتها بطابع خاص، حيث هي انعكاس لتاريخ حقبة زمنية متنوعة مرت بها العمارة بين القديم الذي تمثل في الكلاسيكية، والجديد الذي تمثل في الطراز الحديث، وكلاهما قد ترك الأثر الواضح والشاخص الى يومنا هذا، وبين هذا وذاك فان عمارة اوديسا القديمة قد تأثرت بالعمارة الفرنسية والإيطالية كونها ميناء نقل عبره الكثير من المفاهيم والأفكار، ومن ضمن ذلك الأفكار والروئ المعمارية، ولاحقا العمارة القيصرية، ومن ثم الأفكار الاشتراكية.

بدأت في نهاية القرن التاسع عشر -بداية القرن العشرين – مرحلة جديدة في العمارة العالمية تميزت برغبة جديدة في التطور والتجديد، ومحاولة إيجاد طرق

فنية رغم تمسك الكثير من المعماريين بالتقاليد ورفض مبدأ استئصال القديم بإعتباره تراثاً، هذه الرغبة في إيجاد حلقات وصل بين العمارة القديمة والجديدة من خلال الشكل – المضمون – الغاية – التركيب الأساس. قلة من المعماريين عارضوا فكرة الديكور الوافر بالسعي لإيجاد مواد جديدة في البناء، وتراكيب مبتكرة لتنفيذ الاشكال القديمة بإتجاه إيجاد تراكيب الجديدة لغرض التطور الجديد حسب الإمكانيات التي برزت في وقتها، في حين يرى البعض إن تطور العمارة يجب أن يتم حسب مبدا الاثراء لإيجاد تصاميم وأشكال جديدة. وعلى أية حال في بداية القرن العشرين شاع البناء بالطراز الحديث ليشمل الأبنية العامة، والمحطات، والبنوك، والمسارح، وأمتزج القديم بالجديد لإنتاج عمارة محلية أو من الممكن تسميتها وطنية سعت بإتجاه إيجاد هوية معمارية لكل منطقة تجسد مفهوم الطراز الوطني، وفي مدينة اوديسا سعت إدارتها للحفاظ على القديم، وزد على ذلك تبنت صيانته، لهذا إحتفظت المدينة بطابعها

الخاص المتمثل في شوارعها العريضة والمشجرة، ومن شوارعها المميزة شارع ديرباسوفسكايا، بريموريسكي بلفار وغيرها فضلا عن مسرح الاوبرا المميز في عمارته وشكله وموقعه وسط المدينة، إضافة الى كونه أقدم مسرح في المدينة وأفتتح رسميا الى الزوار عام ١٩١٠م ليكون تحفة فنية يتوسط المدينة.

تميزت عمارة اوديسا بالفخامة التي ذاع صيتها في أوربا كما يوجد فيها مسارح أخرى متعددة، وعدد غير قليل من المتاحف، والمكتبات العامة. والشيء المميز في مدينة اوديسا سكانها حيث ينتمون الى اعراق مختلفة تتكون من أصول بلغارية، وتركية، لكن أغلب سكانها من الروس والأوكران، وعلى أية حال فأن هذا المزيج السكاني قد تعدد أكثر وزاد بسبب علاقاتهم الدائمة بالأجانب من خلال الميناء سواء كانوا بحارةً او سواحاً، وأكتسب الناس نوعاً خاصاً من الطيبة والمرح والعلاقات المنسجمة مع الأجانب حيث لا يشعر الأجنبي الا وهو من أهل الدار.

ومن الجدير بالذكر أن مدينة اوديسا تأسست عام ١٧٩٤م بعد سقوط الدولة العثمانية في حربها مع روسيا سنة ١٧٩٢م ومنذ عام ١٨١٩م ولغاية عام ١٨٥٨م كانت اوديسا ميناءً حرا. ومن الشواهد المهمة في المدينة منطقة الكتكومبا وهي عبارة عن أنفاق كثيرة وصخرية تقع تحت الأرض، وكان الجيش الروسي الأحمر قد إستعملها في حربه ضد النازيين حين كان يختفي فيها الثوار ويظهرون ليلاً لتنفيذ العمليات العسكرية المختلفة ويبلغ طولها عدة كيلومترات وتمتع مدينة اوديسا بجوها البحري الساحر وسواحلها الحديثة التي تغري السواح مما جعلها أحد وجهات السياحة في الاتحاد السوفيتي ثم بعد انهيار الاتحاد وإستقلال أوكرانيا تحولت الى ميناء عالمي ووجهه سياحية يرتادها السواح من دول شتى.

[١٥]

أنهى خلف الدراسة عام ١٩٩١م، وحصل على الماجستير في الصناعات الغذائية، وكان خلف يعتاش على راتب الزمالة الذي يخصصه الأتحاد السوفيتي للطلاب الأجانب والذي كان مقداره (٩٠) روبل، ثم أصبح (١٢٠) روبل كونه من الطلاب المتفوقين، وأصبح ممثلاً للطلبة السودانيين، وتم منحه مقعدا دراسياً لدراسة الدكتوراه من قبل جامعته حيث منحت مقعدين واحداً له والأخر لطالب من تنزانيا. مرت السنوات بسرعة البرق بحلوها ومرها وفي الحياة كثير من الأشياء والمفاجئات، وكثيرا من المحن، لكن خلف كان قوياً وصلباً ومكافحاً وصبوراً، وكان الحلم الذي يراوده في أن يكون مهندساً يعمل في السودان في مجال صناعة الأغذية ويخدم وطنه عبر إختصاصه لكن المفاجئة التي حدثت وهزت أركان العالم هي إنهيار الاتحاد السوفيتي.

وقال الشافعي في الحكمة:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلُ ما تَشـــــــــاءُ
وَطِب نَفساً إِذا حَكَمَ القَضـــــــاءُ
وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيـــــــالي
فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقـــــــــاءُ
وَكُن رَجُلاً عَلـى الأَهـــوالِ جَلداً
وَشيمَتُكَ السَمـاحَةُ وَالوَفـــــــاءُ
وَإِن كَثُرَت عُيوبُكَ فـــي البَـــرايا
وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَهـا غِطـــــــاءُ
تَستَّر بِالسَخـــــــــاءِ فَكُلُّ عَيبٍ
يُغَطّيهِ كَما قـيلَ السَخـــــــــاءُ
وَلا تُرِ لِلأَعـــــــــادي قَطُّ ذُلّاً
فَإِنَّ شَماتَةَ الأَعدا بَـــــــــلاءُ
وَلا تَرجُ السَماحَةَ مِـــن بَخيـــــلٍ
فَما في النارِ لِلظَمآنِ مـــــــــاءُ
وَرِزقُكَ لَيسَ يُنقِصُهُ التَـــــأَنّي
وَلَيسَ يَزيدُ في الرِزقِ العَنـــــاءُ

وَلا حُزنٌ يَـــــدومُ وَلا سُـــــــرورٌ
وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخـــــــــــاءٌ
إِذا ما كُنـتَ ذا قَلـــــــــــبٍ قَنوعٍ
فَأَنتَ وَمالِكُ الدُنيا سَـــــــــــواءٌ
وَمَـــــــــن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايـا
فَلا أَرضٌ تَقيهِ وَلا سَمـــــــــــاءٌ
وَأَرضُ اللَهِ واسِعَةٌ وَلَكِـــــــــــن
إِذا نَزَلَ القَضا ضاقَ الفَضـــــــــاءٌ
دَعِ الأَيّامَ تَغدِرُ كُـــــــــــلَّ حِينٍ
فَما يُغني عَنِ المَـــــــــوتِ الدَواءُ

تأسس الاتحاد السوفيتي (CCCP) عام ١٩٢٢م ويتكون من خمسة عشر دولة هي:

- جمهورية أرمينيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية أذربيجان السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية إستونيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية أوزبكستان السوفيتية الاشتراكية

- جمهورية أوكرانيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية بيلاروس السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية تركمانستان السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية جورجيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية روسيا السوفيتية الاتحادية الاشتراكية
- جمهورية طاجيكستان السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية كازاخستان السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية قيرغيزستان السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية لاتفيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية ليتوانيا السوفيتية الاشتراكية
- جمهورية مولدوفا السوفيتية الاشتراكية

وكانت روسيا أكبر هذه الدول، وهي المؤسسة والقائدة، وساد في هذه البلدان الفكر الشيوعي الذي تقوده اللجنة المركزية للحزب، وكان مقر القيادة في الكرملين في موسكو. أعتمد نظام الأتحاد السوفيتي على النظام المركزي الذي أطلق عليه دكتاتورية البروليتارية، وكان النظام الاشتراكي هو النظام

السائد في هذه البلدان، وبدأت حرب أطلق عليها الحرب الباردة بين الغرب والشرق أو بعبارة أخرى بين الرأسمالية المتمثلة بأميركا وبريطانيا وفرنسا وحلفائهم وبين الأشتراكية المتمثلة في دول الأتحاد السوفيتي والدول الأشتراكية في اوربا الشرقية مثل بلغاريا ورومانيا وجكسلوفاكيا وسواها من الدول ذات المنهج الشيوعي الاشتراكي، وأتخذت دول أخرى نهجاً اخراُ بقيادة تيتو قائد يوغسلافيا مبدأ عدم الانحياز، وتكتلت مع دول أخرى انضمت اليهم تفاديا للصراع، وبقيت الصين تمثل تجربة مستقلة بحد ذاتها تحت قيادة ماو. إستمر الصراع متواتراً بعد الحرب العالمية الثانية في القرن العشرين، بعد أن كانت هذه الأطراف حلفاء ضد دول المحور المتمثلة في المانيا النازية، والدولة العثمانية، واليابان وإيطاليا، وتكلل الحلف بالانتصارعلى هتلروحلفاءه وتقاسموا معاً غنائم الحرب والأرث، لكن بعد ذلك تحول الحلف الى صراع فيما بينهما بطرق شتى، ومن ضمنها محاولة إنهاء كل طرف للأخر، عبر التسابق في صناعة الأسلحة والسيطرة بطرق شتى على موارد دول العالم،

فضلا عن محاولة التوسع، مما زاد من حجم المشاكل الأقتصادية والترهل في قيادة الدولة، وضعف السيطرة الإدارية، وظهور مشاكل إجتماعية وربما فوارق في أشياء كثيرة أدت الى إنهيار الأتحاد السوفيتي، وكان لكل طرف حلف فمثلا وارشو للدول الاشتراكية وحلف الناتو للدول الرأسمالية التي تقودها أمريكا.

أعلن الرئيس الأخير للاتحاد السوفيتي ميخائيل غوربوتشوف في ٢٥/ ديسمبر/ ١٩٩١م عن استقالته في خطاب تلفزيوني وجهه للشعب السوفيتي، وأشار في الخطاب الى الغاء مكتب رئيس إتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، وأعلن كذلك تسليم كافة السلطات الدستورية بما فيها السلطة على الأسلحة النووية الى الرئيس الروسي الذي أنتخب وتصدر المشهد بوريس يلتسن. في ٢٦/ ديسمبر/ ١٩٩١م أصدر مجلس السوفيتي الأعلى للاتحاد السوفيتي الإعلان رقم (H-١٤٢) والذي أعلن بموجبه الأعتراف باستقلال الجمهوريات السوفيتية السابقة، وتم إنشاء رابطة الدول

المستقلة، حلت محل الاتحاد السوفيتي، لكنها ليست فعالة كما كان الأتحاد. وميخائيل ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشوف ولد في ٢/مارس/١٩٣١م وهو محامي خريج جامعة موسكو عام ١٩٥٥م وشغل منصب رئيس الدولة في الاتحاد السوفيتي بين الأعوام ١٩٨٨م - ١٩٩١م، وكان يدعو الى إعادة البناء او ما يسمى في وقتها البريسترويكا.

ولد غورباتشوف في كراي ستافروبل من عائلة روسية -أوكرانية وتدرج في مناصب حزبية منذ شبابه، الى أن وصل الى المنصب الأعلى في قيادة الحزب والدولة. حصل غورباتشوف على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٠م، وجوائز عدة وأوسمة ويعده البعض خائناً للأشتراكية وعلى أية حال حصل ما كان متوقعاً من قبل خلف وغيره من المهتمين بالشأن الروسي، والحقيقة هذا الموضوع كان مؤلماً للكثير من الشيوعيين في العالم الذين يرون في المنهج الروسي ملاذهم المقدس، وكذلك الكثير من الأحزاب الاشتراكية الأخرى.

كان العالم الضعيف، أو الدول التي لا تسيير وفق

هوى النظام الرأسمالي ترى في الأتحاد السوفيتي بانه الدرع الأخير لهم ضد التقلبات وعنجهية وهمجية الأنظمة الرأسمالية مبتكرة الحروب والتقلبات السياسية والتدخل في شؤون البلدان بطرقٍ شتى، وبالتالي نهب ثرواتها بأشكال وسبل متعددة، حتى وصل الى نهب الثروات البشرية سواء من الكفاءات او الطبقات الأخرى. كانت الثقافتان الرأسمالية والاشتراكية تسعيان لنشر أفكارهما المتضادة بتجميل صورة الأنظمة بطرق مختلفة مما أدى الى أنفاق مبالغ طائلة من قبل الطرفين للدعاية والاعلان بالإضافة الى السباق التسلحي سواء النووي وغيره الذي تعدى ذلك الى الفضاء وكانت هذه المبالغ الطائلة والضخمة لو أنفقت على شعوبهم وبلدانهم لكانت جنات أرضية، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن وحدث المحظور حيث إنهار الأتحاد السوفيتي بعد أن انهكته الحروب الكبيرة التي كانت تجري ما بين الطرفين.

[١٦]

حدث الانهيار في ٢٥ ديسمبر عام ١٩٩١م، وكان خلف في ذلك الوقت في مدينة اوديسا، وقد عقد العزم للسفر الى السودان لغرض العمل وأكتساب الخبرة في مجال أختصاصه، والحقيقة التامة أن الدراسة داخل أروقة الجامعة شيء، والعمل والتطبيق داخل المصانع شيء اخر، وكان خلف طموحاً في أن يعمل وأن ينجح في العمل، لكن الله يفعل ما يريد.

حزم خلف أمتعته وجمع قواه، وقرر السفر في الشهر التاسع من عام ١٩٩١م. وشاءت الاقدار أن يصبح الوضع معقداً ومرتبكاً سياسياً عند وصوله الى السودان، والمفاجأة القاسية والمدهشة بالنسبة لخلف هي عدم حصوله على فرصة عمل التي بدت شبه مستحيلة، وذلك بسبب سيطرة الاخوان المسلمون على كل مفاصل الحياة والدولة، وتغيرت الأحلام أو قل قد تلاشت وكأنك يا بو زيد ما غزيت.

صادف أن التقى خلف مع أحد الأصدقاء القدامى

من الذين كانوا يعملون معه في إتحاد الطلبة في السودان وكان من الأعضاء النشطين والفعالين في حزب الأمة وصادف أنه للتو كان خارجاً من السجن، حيث كان معتقلا سياسياً لمدة سنتين وأسمة دفع الله عبد الله، وكان آنذاك طالبا في جامعة السودان وأنتخب عضواً في اللجنة المالية، وإذا به يقدم نصيحة مجانية لخلف بان لا يفكر في البقاء في السودان، والإسراع بأستغلال فرصه الدراسة والزمالة الممنوحة له من قبل الجامعة دون هدر في الوقت، ثم أردف قائلاً لخلف إنهم لن يتركوك بسلام ابداً ، وخاصةً وأن رئيس إتحاد الطلبة السابق هو الأن ضابط في جهاز المخابرات السوداني، وهو شديد الأهتمام والمتابعة وراء كل الذين كانوا معه على إختلاف في الرأي، وخلف أحدهم، وقد يكون هدفاً للانتقام منه، حتى أنه نصح خلف بعدم الأقتراب بل والابتعاد عن جامعة السودان، حتى لا يشون به، وخاصة وانها الأن تقع تحت قبضه يده، وهو لم يترك أي معارض سابق أو مختلف معه في الرأي. أصاب خلف نوعاً من الذهول والريبة بل الخوف، وأفكار شتى تذهب

به بعيداً، من ثم التقى صديقاً اخراً هو الدكتور عصام محمد صالح الذي كان زميلاً له أثناء دراسته في الاتحاد السوفيتي وتخرج قبله بسنتين، وكان يدرس في جامعة الصداقة مع الشعوب، والتقى به بعد رحلة بحث استمرت فترة زمنية، وصدفةً يكتشف أنه يسكن في أحد احياء الخرطوم التي يسكنها أخوه الأكبر، وسر بمعرفته العنوان ويذهب لزيارته، وكانت الصدمة الكبرى واذا به يلتقي به وهو خارج للتو من السجن حيث تبين له أنه كان معتقلاً سياسياً، وقص عليه طرق التعذيب القاسية التي تلقاها ثم نزع قميصه ليريه شتى أنواع التعذيب تاركةً اثارها على جسده، سواء كان اثار للخرطوش أو أعقاب سكائر مطفأة على جسده تاركة أثاراً عميقه وخاصةً في منطقة الظهر، والبطن. ذهل خلف لما رأه، وصدم ثم اعتراه نوع من الدهشة، والخوف، والاسف، ومن ثم قدم له الدكتور عصام نصيحة مهمة في أن يسرع في مغادرة السودان قبل أن يقع في المصيدة التي لا ترحم أحداً، وعليه إستغلال فرصة الدراسة لعل الله يجد لهم سبيلا.

يقول الشاعر محمد الماغوط معاتباً السياب:

أي وطنٍ تبحث عنه يا صديقي
هذا الذي يزيحه الكناسون اخر الليل مع القمامة
وتريد الجنة
الجنة للهوائيين وراكبي الدراجات
أبقي كما انت سألحق بك

وعلى ايه حال يقول الشاعر الشريف قتادة أبو عزيز:

بلادي وان جارت عليّ عزيزة
واهلي وان ضنوا عليّ كـــرام

ثم يقول:

بـــــلادي وأن هانت علـى عزيزة
ولو أننى أعـــــرى بهـــا وأجوع
وَلِكفَ ضرغام أصـــــول ببطشها
وأشرى بها بين الـورى وأبيـــــع
تظل ملوك الأرض تلثـــم ظهرهـا
وفـــى بطنها للمجد بين ربيـــع
أأجعلها تحـــت الثرى ثـــم أبتغى
خلاصا لهـــا؟ أنـــي اذن لوضيـــع

وما أنا إلا المسك فـــي كل بلـــدة

أضـــــوع وأما عندكم فأضيـــــع

توفي صديقه الدكتور عصام محمد صالح وترك ذكرى طيبه وصفحة بيضاء من النضال وحب الوطن وتاريخاً مشرفاً، له الرحمة والغفران والذكر الدائم. خرج خلف من دار الدكتور عصام والخوف والفزع يحيط به من كل جانب بعد أن أخبره بأن يحتاط لان داره مراقب، مما زاد من مخاوف وقلق خلف، لكن أخوة خلف رافقوه، وكانوا مرافقين له محاولين التستر عليه كي لا يراه أحد.

ويردد خلف مع نفسه ما كتبه محمد الفيتوري:

العمر مشـــوار قـــصير

انت ليـــه خايف تسيرو

وله فـــي عمرك صغيـر

وزيك يشتاق لي مصيرو

ما ان وصل خلف الى دار أخيه حتى وجدهم في حاله ذعر وهستيريا وهلع وخوف عليه، ثم نصحوه بمغادرة السودان على وجه السرعة تجنباً للمحظور الذي قد يقع

فيه. كان قراراً صعباً على خلف وخاصةً وإن الاتحاد السوفيتي قد إنهار وأوكرانيا أصبحت دوله مستقلة، ولكن على ما يبدو أغلقت أمامه جميع الطرق، وجهز نفسه وعاد وقفل راجعا الى مدينة اوديسا ناوياً اكمال الدراسة، والى الله المصير يعلم ما لا نعلم.

يقول الجواهري:

هيهـــــــــــاتَ ينهضُ موطنٌ

حُبٌّ التقســـــــــــمٌ دابـــه

سَحـــقَ الزمـــــــــانُ رؤوسَه

فترأسّتْ اذنابـــــــــــــــه

فاذا نَبَـــــــــــــا دهرٌ به

فحُمـــــــــاتهُ نُهِّـــــــــابه

التحق خلف بالدراسة في جامعة لمونوصوفا، لكنه بقي حاملاً هم الوطن ووضعه السياسي المعقد ومتابعاً لأحداثه محاولا إيجاد منافذ جديدة في حياته تعينه على إكمال المشوار في هذه الحياة التي لا تخلو من صعوبات وتعقيدات وطعنات.

تميزت هذه الفترة في السودان بحكم الطاغية البشير (١٩٨٩ -٢٠١٩م)، والبشير هو عمر حسن أحمد البشير من مواليد ١٩٤٤م ورئيس حزب المؤتمرالوطني، ووصل الى السلطة بانقلاب عسكري، وتولى عدة مناصب في وقت واحد، منها رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، كما هو حال غيره من الطغاة، أعتقل بعد إحتجاجات واسعة ضده تكللت بإنقلاب عسكري ضده.

ولد عمر في قرية صغيره تسمى حوش بانقاسندي وتنتمي لقبيلة البديرية وتخرج من الكلية الحربية السودانية ١٩٦٧م، ونال الماجستير في الأركان من ماليزيا عام ١٩٨٣م وعمل فترةً في الامارات وقاد إنقلابه في عام ١٩٨٩م بإيعاز من الجبهة القومية الإسلامية وحكم السودان حوالي ثلاثين عاماً وفي فترة حكمه فصل السودان، وظل البشير ملاحقاً بتهم دولية بارتكاب جرائم ضد الإنسانية في دارفور وسواها من مناطق السودان.

[١٧]

بدأت مرحلة جديدة في حياة خلف، حيث التحق بدراسة الدكتوراه، وبدأ يبحث عن رزقٍ يعينه على تكاليف الدراسة متكيفاً مع الوضع الجديد في ظل تغيرات النظام الساسي واستقلال أوكرانيا، والذي صادف مع الأنفتاح الأقتصادي تجاه العالم ولاسيما وإن الأتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية المنضوية معه كانوا يعانون حصاراً اقتصادياً متنوع الأشكال، وبناءً على ذلك بدأ نشاط القطاع الخاص يزدهر ويتطور وتسارعت التحولات والتطورات على اشكالها المختلفة تظهر، ولاسيما ذات الطابع الرأسمالي، وظهور طبقة جديدة مهيمنة على المشهد العام، لهذا سارع خلف مع أحد الأصدقاء الروس لتأسيس شركة حيث تربطه بهذا الشخص علاقة متينة وأسمياها شركة المستقبل، وكان نشاطها في مجالات شتى منها تقديم الخدمات على أشكالها، وتهيئة قبولات دراسية في الجامعات

الأوكرانية، فضلاً عن التجارة في المواد الغذائية، ومنها (الكاركديه)، وكذلك في مجال الطيران حيث بدأوا بتنظيم رحلات خاصة الى مصر وفي هذا الاثناء سادت تجارة الحقيبة، والتي انشغل بها المجتمع الأوكراني والروسي وجلب من خلالها كل شيء لم يتوفر سابقاً نتيجة الحصار الاقتصادي الغربي، ومن الجدير بالذكر حتى السفر والسياحة كانت محظورة على هذه الشعوب سواء من قبل الجانب السوفيتي أو الغربي تضمنت تجارة الحقيبة بضائع مختلفة تاجر فيها أكثر الطلاب الأجانب سواء، في روسيا، أو الدول الأشتراكية السابقة، وراجت وشاعت هذه التجارة وإستغل خلف وشريكه الوضع وبالأخص مع مصر كونها جيران السودان إضافة الى مصر بالنسبة للسودانيين تمثل شيئاً كبيراً فضلاً عن معرفة خلف بالسوق المصرية إضافة الى الروابط الأخرى مثل الدين، واللغة، والجيرة والعروبة وسواها من الروابط وصولاً الى التاريخ، وماء النيل الذي يشربون ماءه سوياً. وجمهورية مصر تقع في

الركن الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، ولها إمتداد أسيوي حيث تقع شبه جزيرة سيناء داخل قارة اسيا، ونفوس مصر ناهز مئة مليون نسمة أو يزيد، ولها سواحل على البحر المتوسط وعلى البحر الأحمر وذات موقع استراتيجي، وتعتبر من أقدم الحضارات على وجه الأرض، وظهرت فيها حضارات قديمة مثل حضارة البراري، يقدر تاريخها بحوالي سبعة الاف سنة قبل الميلاد وحضارة نقادة نحو أربعة الاف واربعمائة سنة قبل الميلاد، ثم عصر الاسرات، التي يمتد نحو ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد وتواكب على مصر العديد من العصور والحقب التاريخية مروراً بالفرس (٣٤٣ ق.م)، ثم قدوم الأسكندر المقدوني (٣٢٣ ق.م)، ثم الدولة البلطمية، وبعدها غزاها الرومان في (٣١ ق.م) وظلت تحت حكمهم ستمائة عام.

يوجد في مصر حوالي ثلث أثار العالم مثل أهرام الجيزة، أبو الهول، معبد الكرنك، البدير البحري، راوي الملوك وأثار في مدينة منف، وطيبة والكرنك، حتى

يوجد فيها علم خاص بدراسة الأثار المصرية يعرف بعلم المصريات. إضافة الى ذلك توجد في مصر أثار رومانية وأثار أغريقية وقبطية وإسلامية تعود لعصور مختلفة. وتعد اللغة المصرية القديمة من أقدم اللغات في العالم ثم بعد ذلك إخترعوا الكتابة الهيروغليفية. وساد الأعتقاد أن عمارة مصر القديمة قد تأثرت بعمارة وادي الرافدين التي تعد أقدم منها حسب النصوص التي إكتشفت لاحقاً وخاصةً في عصر الدولة القديمة، حيث بنى الملوك اهرامات كثيرة، ولقب هذا العصر بعصر بناة الاهرام. ومن أشهرهم الملك زوسر، وهرم سفارة المدرج الذي بناه المهندس المعماري امحوتب، وهذا الهرم يشبه الزقورة العراقية، والملك خوفو والهرم الأكبر.

ويرجع تسمية مصر نسبة الى مصرايم بن خام بن نوح وتقول النصوص الآرامية السوريانية مصرين. ويعد الوالي العثماني محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة بسبب إصلاحاته الواسعة والتي شملت جميع نواحي الحياة التي بدأها ببناء جيش مصري ثم أنشأ المدرسة

الحربية، وأقام صناعة للسفن في بولاق وترسانة البحرية في الإسكندرية وأصلح أحوال الزراعة والري وانشاء القناطر والسدود والترع. إزدهرت مكانة مصر بإتمام حفر قناة السويس وعلى أثرها تهددت المصالح العثمانية حيث أصبحت معبراً مهما ومختصراً بين الشرق والغرب، ثم قام الخديوي إسماعيل بنهضة شاملة ضم السودان الى حكمه، وتوغل في افريقيا وتلاها إحتلال بريطانيا التي عزلت الخديوي إسماعيل، وعينت ابنه توفيق عام ١٨٨١م، وهكذا دواليك، وعلى أية حال فان إرتباط السودان بمصر إرتباطاً ترك أثراً بالغاً في العلاقات الاجتماعية، وسواها من العلاقات الأخرى.

وقال الشاعر في حب مصر:

يا مصرُ، حبكِ فـــي الفؤادِ كبيرُ

وله أريجٌ طيبٌ وعـــبيـــــرُ

هـــــو دوحةٌ أغضانُها كعروقِنا

يمتدُّ فينا عـــــطرُها المسحورُ

هو ذلكَ الجبـــــل الأشمُّ كمجدنا

رغـــمَ الزوابع راســـخٌ ووقـــورُ

هـــو شمسُنا الخضراءُ من أنوارها

لا يستقرُّ بأرضنا دَيجـــــــــــورُ

يا مصرُ، يا أرض السماحةِ والندى

يا واحـــــــةً يسعى لـــها المقهورُ

كانت تجارة خلف قد راجت وجنى منها مبلغ من المال، وكان يظن أن الحياة ابتسمت له وشملت تجارته مع مصر أحذية وملابس جلدية، وسلع مختلفة سريعة البيع ثم أن أرباحها مضمونة، فضلا عن قيامه مع شريكة بتنظيم رحلات تسمى (الجارتر) الى مصر وغيرها من البلدان الأخرى وأستمر الحال بهذا الشكل، الى ان حصلت المفاجئة عندما أقدمت مجموعة من الأشخاص في محاولة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في العاصمة أديس أبابا، عاصمة أثيوبيا أثناء زيارته اليها وأتهم السودان في تدبيرها. المحاولة حدثت عند زيارة الرئيس المصري لحضور مؤتمر القمة الافريقية، حيث

استهدفت موكبه من قبل عشرة أشخاص مسلحين، وعلى أثرها قامت حمايته بقتل خمسة منهم، ونجاة الرئيس، وعاد على الفور الى المطار خوفاً من كمين اخر، وأعلن الاسلاميون مسؤوليتهم عن الحادث، الذي جرى في ٢٦/يونيو/١٩٩٥م، ومنذ محاولة الأغتيال تلك لم يتوقف النظام المصري عن الهجوم على السودان وإتهامه بالضلوع، والتخطيط لها، وعلى أية حال تضررت العلاقة بين مصر والسودان ، وأثرت كثيرا على عمل خلف، ثم انها تسببت في منع السودانيين من دخول مصر، حتى أصبحت عملية الدخول من الصعوبات البالغة، وأثناء هذه الفترة كان خلف قد دخل في عملية تجارية مع المصريين، تضمنت التعهد بتصنيع أحذية وملابس شتائية وملابس حسب الطلب. كان خلف قد جمع كل رأس ماله البالغ خمسة عشر ألف دولار وكان هذا المبلغ كبيراً في أوكرانيا إستثمره في هذه الصفقة لكن المفاجئة التي حدثت له وكانت صدمة جديدة حين أرسلوا له البضاعة دون مستوى الاتفاق ويمكن أن يقال

عنها انها مغشوشة وأصابت بضاعة خلف الكساد، وخسر ما قيمته ٧٥٪ من قيمة رأسماله الذي جمعه في عناء شديد، ثم لم يستطع التخلص من هذه البضاعة بمدة قصيرة بل إستمرت لمدة اربع سنوات وقد كانت هذه الصدمة كبيرة ومؤلمة وكأنك يا بو زيد ما غزيت.

يقول الامام علي بن ابي طالب (ع):

اصبر علـــي حلو الزمان ومره

واعـــــــلم بأن الله بـالـغ أمره

لا تستغيب فتستغاب وربـمـــا

مـن قال شيئا قيل فـــــيه بمثله

وتجـنب الفحشاء لا تنطق بهـا

مـا دمت في جد الكلام وهـزله

وإذا الصديق أسي عليك بجهله

فاصفح لأجـــل الله ليس لأجله

كـم عالم متـــــــفضل قد سبه

مـن لا يساوي غـــرزة في نعله

البحـر تعلو فوقه جيـــف الفلا

والـدور مطمور بأسفل رمـــــله

وآيـاك تجني سكرا من حنظـل

فـالشئ يرجع بالمذاق لأصـلـه

كان عود خلف لايزال طرياً ويافعاً حين تعرض لهذه الحادثة التي كانت عبارة عن صدمة، لكن خلف تعلم المثابرة وعدم اليأس، والايمان، وان رحمه الله واسعة، وجلس مع أخيه الأصغر طارق الذي كان يدرس الدكتوراه أيضاُ، لكن في قسم الفيزياء، يتداولون في الأمر، واتفقا على أن يتركز جهدهما على اكمال الدراسة والتفرغ التام لها بما يضمن لهم الحصول عليها لأنها طموحهم الأساس. عسى الله ان يفتح لهم أحد ابوابه الكثيرة.

يقول الامام الشافعي:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلُ ما تَشـــــــــاءُ

وَطِب نَفساً إِذا حَكَمَ القَضـــــــاءُ

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيـــــــــالي
فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقـــــــــاءٌ
وَكُن رَجُلاً عَلى الأَهـــــوالِ جَلداً
وَشيمَتُكَ السَماحَةُ وَالوَفـــــــاءٌ
وَإِن كَثُرَت عُيوبُكَ في البَـــــرايا
وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطـــــــاءٌ
تَستَّرُ بِالسَخـــــــــاءِ فَكُلُّ عَيبٍ
يُغَطّيهِ كَما قيلَ السَخـــــــــاءٌ
وَلا تُرِ لِلأَعـــــــــادي قَطُّ ذُلّاً
فَإِنَّ شَماتَةَ الأَعدا بَـــــــــلاءٌ
وَلا تَرجُ السَماحَةَ مِن بَخيـــــــلٍ
فَما في النارِ لِلظَمآنِ مـــــــــاءٌ
وَرِزقُكَ لَيسَ يُنقِـــصُهُ التَـــــأَنّي
وَلَيسَ يَزيدُ في الرِزقِ العَنـــــــاءٌ
وَلا حُزنٌ يَـــــدومُ وَلا سُـــــرورٌ
وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخـــــــــاءٌ

إذا مـــــــــــا كُنتَ ذا قَلبٍ قَنوعٍ
فَأَنتَ وَمالِكُ الدُنيا سَـــــــــــواءٌ
وَمَـــــــــــن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايا
فَلا أَرضٌ تَقيهِ وَلا سَمـــــــــــاءٌ
وَأَرضُ اللَهِ واسِعَةٌ وَلَكِـــــــــــن
إِذا نَزَلَ القَضا ضاقَ الفَضـــــــــــاءٌ
دَعِ الأَيّامَ تَغـــــــــــدِرُ كُلَّ حِينٍ
فَما يُغني عَنِ المَـــــــــــوتِ الدَواءُ

قال عبد ربه:

العِلْم يُحْي قُلوبَ الميّتين كـــــما
تَحْيا البلادُ إذا مـــــا مَسَّها المَطَرُ
والعِلم يَجْلو العَمَى عن قَلْب صاحِبه
كما يُجَلّي ســـــوادَ الظُلْمة القمَر

***

[١٨]

كان خلف كثير التردد على مكتبة الجامعة التي يدرس فيها، يبحث عن مصادر تعينه على إتمام دراسة الدكتوراه وأثناء تردده لاحظ وجود فتاه في المكتبة الأوكرانية تعينه كثيراً وتقدم له شتى أنواع المساعدة تعارفا معاً حين قال لها انا خلف إسماعيل وأجابته: وانا لاريسا ايفكينفنه وكما قال الشاعر:

غازلتها فتبسمت فرمى الفؤاد بحبها

يبغي وصـــــــالاً لا يريد سواها

وسرعان ما تطورت علاقتهما من علاقة رسميه الى علاقة حب تكللت بالزواج.

يقول المتنبي:

لا تحارب بناظريك فـــــؤادي

فـــضعيفان يـــغلبان قويا

إذا ما رأت عـــيني جمالك مقبلاً

وحقك يا روحي سكرت بلا شرب

ويقول نزار قباني في قصيدة وشوشه:

في ثغرها ابتهال

يهمس لي: تعال

إلى انعتاقٍ أزرقٍ

حدوده المحال

نشرد تياري شذا

لم يخفقا ببال

لا تستحي .. فالورد في

طريقنا تلال ما دمت لي مالي وماقبل، وما يقال

لم يكن قرار الزواج سهلاً بسبب ظروف عده منها البعد عن الاهل والوطن، ثم الزواج من أجنبية امراً أخر، وربما أن الموضوع برمته يعود للنشئة البدوية أو الزراعية، فمثلاً السودانيون لا يعتبرون الزواج زواجاً إن لم يكن من سودانية، وثانياً لان الأهل أصلاً رافضين فكره الزواج من أجنبية أو لنقل متحفظين، وعلى ما يبدو إنها تبدو فكرة غريبة، وخلف كان مهتماً لمشاعرأهله وأحاسيسهم رغم بعده عنهم ويحسب لرأيهم حساب، وعلى أيه حال

فالزواج قسمه ونصيب وموعد الزواج لا يعلمه أحداً يأتي هكذا دون مقدمات.

يقول قيس:

إذا ما وَنَت نادى بها الشوق فأنبرت

تَجد وَمَنْ نادى به الشـــوق أسرعا

خلف ولاريسا كانا قد أغرما ببعضهما، وكان خلف مهتم بالاستقرار ويبحث عنه، ثم أنه نوى أن يستقر في أوكرانيا عازماً عدم مغادرتها، والحال بهذا الشكل عقد العزم وتوكل على الله وتزوج من لاريسا، ولكنه أخفى زواجه عن أهله تجنباً لجرح مشاعرهم، حدث هذا عام ١٩٩٢م، وبحلول عام ١٩٩٣م انجبت لاريسا ولدهم الأكبر راشد.

يقول مهيار:

إذا ذكر المحبوب عنـــد محبه

ترنح نشوانَ وجُن طَـــــروب

ويقول الشاعر المجنون:

قلبـــــي بحبك مـــــايفيـــــق
وجفـــن عينـــــي ماينـــــــام
قد طـــــــــال فيكَ الليل حتى
مايقـــــــــــال له انصـــرام
والنجم فيـــــه راكـــــــــز
والفجر يمنعـــــــــــه الظلام
ليل يغيـــــــــــــر نهايه
ولكل مفتـــــــــــاح ختام
في وَصَلِك العـــــيش الهنـــــي
وهجرك المـــــــــوت الزُؤامُ

وعلى أي حال فالحظ حالف خلف في زواجه من لاريسا أم راشد، حيث أصبحت له سنداً ساعدته كثيراً على مجابهة وتحمل كثيراً من المشاكل، وإستطاع معها إجتياز كثير من المحن وكانت إمرأة صبورة ومضحية ولم يبدو عليها الملل أو التبطر، بل بالعكس كانت دائما تشجع خلف على إجتياز المحن أو الصعوبات.

يقول الشاعر السوداني ادريس محمد جماع:

والسيف في الغمد لاتغشى مضاربه

وسيف عينيك فـــــي الحالين بتار

ويقول المتنبي في وصف المرأة:

كأنّها الشّمسُ يُعْيي كَفَّ قابضِهِ

شُعاعُها ويَراهُ الطّرْفُ مُقْتَرِبَـــا

ويقول المتنبي ايضاً:

كَتَمتُ حُبَّكِ حَتّى مِنكِ تَكرِمَـــةً

ثُمَّ اِستَوى فيكِ إسراري وَإعلاني

كَأَنَّهُ زادَ حَتّى فاضَ مِن جَسَـدي

فَصارَ سُقمي بِهِ في جِسمِ كِتماني

وعلى كل حال بعد ولادة إبنه الأكبر راشد، علمت أسرته بواقعة الزواج، وتقبلت الموضوع وأرسل خلف لهم الصور، وكان فرحاً لما سارت عليه الأمور ورغم الغربة لكن صوت الحنين بقي يئن في داخله حباً بالسودان.

وكما قال الشاعر السوداني

وحملت نجمتك الأنيقة في فؤادي

ومشيت نحوك فانتهيت إلى بلادي

ورسمت وجهك في جبين الحلم

في موج الورق

وغفوت في صدر الشفق

استقبل الميعاد منك فلم يعد

لي من سمائك غير أطياف الأرق

يا همسة سكبت حبيبات الندى ألحانها

يا وردة العطر الذي

غسل الدواخل بالعبق

ميلادك الآتي

بكل مواسم الأفراح نحوي ليته

ينهى عن الحزن المقدس يأتني

بالعشق والمطر الملون والشبق

ان جاء يخبرك الحنين

عن اشتياقي

والهنيهات التي ذابت
من الصبر المزيف والقلق
فتأكدي بالحق إني لم أزل
أسمو على قمم المشاعر سامقاً
كالبرق في زهو السهى

أثناء هذه الفترة التي تكللت بزواجه إستطاع خلف التعرف أكثر على المجتمع الأوكراني الذي أصبح جزءاً منه وتعرف على خصوصيات هذا الشعب الذي أحبه كثيراً لأنه أحتضن خلف ولم يشعره يوماً بالغربة او الفرق في العرق، أو اللون بل بالعكس كان سنداً معيناً في جعل خلف كثير الاعتزاز بوطنه الثاني.

الناس هنا في أوكرانيا بسطاء خالين من عقد كثيرة، وفي كثير من الأحيان ينظرون الى الحياة بواقعية حتى انهم متصالحون مع ذاتهم، متعاطفون مع الأجنبي، وربما لان مدينة أوديسا بالذات تتمتع بخصوصية سحرية نتيجة لوجود أجانب كثر، وعلى أية حال إستمر إيقاع الحياة بهذا الشكل حين تقدم خلف

بطلب للحصول على الجنسية الأوكرانية والتي سهلت له السفر الى كثير من البلدان ناهيك عن إمكانية البحث عن عمل والأمتلاك العقاري.

يقول الامام علي (ع):

لإراحة في الدنيا

ولا مفر من الموت

ولا حيلة في الرزق

ولا خلاص من السن الناس

***

[١٩]

بقى حلم العودة، أو زيارة السودان يراود خلف ويتأجج في داخله، وخلال زياراتهِ المتكررة بين القاهرة وأوكرانيا، التقى خلف بكثير من الأصدقاء، وبعض من الرفاق القدماء والمعارف سواء الذين درسوا معه أو عملوا معاً أو ممن كانوا معه في الأتحاد الطلابي وشتى المعارف محاولاً التقاط الخيط نحو الوطن، وكان أغلب الذين التقى بهم كانوا أما مطروداً أو مفصولاً من الوظيفة أو ملاحقاً و ربما مطلوباً للدولة وبين هارب من قضاء، أو خارج للتو من السجن، وكان اغلبهم من الشعراء والمثقفين الذين رفضوا الخضوع او الرضوخ لمبادئ الاسلام السياسي بقيادة الاخوان المسلمين، الذين سبق وأن أحكموا السيطرة على كل مفاصل الحكم في السودان، وثمة حقيقة أخرى هي أن خلف لم يستطع السفر الى السودان من عام ١٩٩١ -١٩٩٨م بسبب الوضع السياسي المرتبك والمعقد.

في عام ١٩٩٨ جمع قواه وقرر خلف السفر الى السودان ولأول مره في حياته يكتشف وأنه غريباً تماماً عن واقع السودان الجديد، حيث المعارف القدماء أكثرهم بين مهاجر خارج البلد أو كبير السن يحمل أعباء الحياة، حتى صغار السن أصبحوا كباراً في السن، وحاول جاهداً التأقلم لاستعادة ماضي كان يعيشه أو يحلم به لكن فجأةً إنتابه شعورغريب وكأن جذوره قد تقطعت أو أصابها شيء ما.

يقول أبو العتاهية:

سألت الدار تخبرني
عن الأحبابِ ما فعلوا
فقالت لي أناخ القوم
أياماً وقد رحلوا
فقلت وأين أطلبهم؟
وأيّ منازلٍ نزلوا

ويقول شاعر اخر:

وكان فؤادي خـالياً قبل حبـــــكم

وكأن بذكر الخلق يلهو ويـــــمرحُ

فلما دعا قلبي هـــواك أجـــابه

فلستُ أراه عن فنانـــــــك يبرحُ

رُميت ببعدٍ منـــــك إن كنت كاذباً

إذا كنت فـــي الدنيا بغيرك أفـرح

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تـصل

فـــلستُ أرى قلبي لغيرك يصـلحُ

عندما يسافر الانسان فترة طويلة تتجاوز الخمس سنوات عن مكان ما، يكاد ينقطع عنه وربما تتغير الظروف وإيقاع الحياة يصبح بالنسبة اليه مختلفاً، وخلف قضى بحدود ثلاثةً عشر عاماً في الغربة لكن الحنين، وحب الوطن وتراب الوطن و ذكريات الصبا لها حدود وخاصةً وهو قد تأقلم في أوكرانيا وبالإضافة الى ابنه راشد ثم ولدت له زوجته ابنه وأنه قضى ردحاً طويلاً من الزمن خارج الوطن، وبقي مثل ارجوحة تهتز بين

أوكرانيا والسودان ولله الامر من قبل ومن بعد ، وزبدة القول أن فلسفة الحياة معقدة ولا ادري كيف أصفها، لكن أنا أريد وأنت تريد والله يفعل ما يريد.

يقول أبا إسحاق الغزى:

إذا الصبا سحبت أذيالها سحراً
على العقيق وقرت في رُبى اَضم
وَحَرشت بين بان الجزع ظالمة
وشيحه وجرت في الضال والسلم
تنفس الوجد وارتاح المشوق وعا
ش الرُوحِ بالروحِ بعد الأخذ بالكظمِ

ورغم مرور السنين الطويلة بعقودها المتتالية، لكن وضعنا السياسي في بلاد العرب بقي معقداً يدور حول نفسه، ولا إصلاح، أو تطور، تتدخل قوى متعددة في شؤوننا، حروب دائمة، صراعات على السلطة، والجاه والمناصب، أشياء كثيرة تحدث وثورات وانقلابات متتالية تدفع ثمنها الشعوب على إختلاف إنتماءاتها، وهي تدور

حول ذاتها، ومصائبها تتوالى ولا يوجد أي تطور، كل العالم يتقدم الا نحن نتقدم الى الوراء، رغم ان شعوبنا طيبة، فقيرة الحال، ذكية، طموحة وسواها من الصفات، لكن ثمة أمور في بعض الأحيان تحيير العقل، وأسئلة كثيرة تحتاج الى أجوبة مفقودة ولازلنا تائهون.

يقول الشاعر فخري البارودي

بلاد العرب أوطانـي

من الشـــام لبغدانِ

ومن نجد إلى يـمنٍ

إلى مصر فتطـوانِ

فلا حد يباعدنـــا

ولا دين يفرقنـــا

لسان الضاد يجمـعنا

بغسان وعدنـــانِ

بلاد العرب أوطانـي

من الشام لبغـــدانِ

ومن نجد إلى يمــن

إلى مــصر فتطــوانِ

لنا مدينة سلفـــــت

سنحييها وإن دثــرت

ولو في وجهنا وقفت

دهاة الإنــس والجان

بــلاد العرب أوطاني

من الشام لبغـــــدانِ

ومن نجد إلى يمــن

إلى مصر فتطـــوانِ

فهبوا يا بني قومــي

إلى العلياء بالعلـــم

وغنوا يا بني أمـــي

بلاد الــعرب أوطاني

بلادُ العرب أوطــاني

من الشــام لبغـــدان

ومن نجد إلى يمــن

إلى مـــصر فتطــوانِ

ويقول الشاعر احمد مطر واصفاً حال العرب:

قرب جثمان النبي،

مات مشنوقا عليها بحبال الكذب،

وطن لم يبق من آثاره غير جدار خرب،

لم تزل لاصقة فيه بقايا من نفايات الشعارات وروث الخطب،

عاش حزب ا لـــ... يسقط ا لـخـا... عـائد و.... والموت للمغتصب،

وعلى الهامش سطر،

أثر ليس له سطر،

إنما كان اسمه يوما بلاد العرب

***

[٢٠]

عام ١٩٩٤م أنهى طارق الأخ الأصغر لخلف دراسة الدكتوراه وأصبح دكتور في علم الفيزياء، وأقترح عليه خلف السفر الى أوربا للعمل في إحدى دولها، لكنه أبى وقرر الذهاب الى السودان ليكون جزءاً من واقع طالما راوده حلم تغيره، وصادف أن خلف يَمرُ بظروف صعبة حين خسر تجارته وذهبت أمواله التي جمعها بتعب وشقاء مهب ريحٍ، ولولا دعم وصبر زوجته وتحملها لمثل تلك الظروف القاسية نتيجة ضيق الحال لما مرت الازمة بسلام، إستطاع خلف إكمال الدكتوراه عام ١٩٩٥م.

يقول الكاتب السوداني صالح الطيب في روايته موسم الهجرة الى الشمال في هذا المقطع:

"سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك" لا غرو، فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد قالوا إنك نلت شهادة كبيرة ماذا تسمونها؟ الدكتوراه؟ يقول لي

ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك، فقد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا انتصاري، "يقولون إنك لامع منذ صغرك. العفو هكذا قلت، لكنني، والحق يقال، كنت تلك الأيام مزهواً بنفسي، حسن الظن بها. دكتوراه. هذا شيء كبير. فقلت له، وأنا أتصنع التواضع، إن الأمر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز. واغتظت، لا أخفي عليكم أنني اغتظت، حين ضحك الرجل ملء وجهه، وقال: نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيراً. انظر كيف يقول نحن ولا يشملني بها، مع العلم بأن البلد بلدي، وهو لا أنا الغريب".

وعلى اية حال توجه الدكتور خلف نحو العمل باحثاً عن فرصة ما يستطيع من خلالها إعالة عائلته، وكانت ظروفه قاسية جداً والحياة تأخذه وتقلبه من جانب الى اخر، فمر على صديق له وهو زميله أيام الدراسة يعمل في سوق للمواد الغذائية بأسعار الجملة

يسمى السوق (أوبتفي -رنيك)، ووضع صديقه المادي جيد ويدعى زاوو وهوه شيشاني الأصل.

إترح زاوو على خلف عملاً في ذات السوق بمساعدته بمواد غذائية يسدد ثمنها بعد بيعها متى تيسر الحال وقال له أنت وإجتهادك يا صديقي.

يقول الشافعي

إذا أصبحت عندي قوت يومي

فخل الهـــم عني يـــا سعيد

ولا تخطر هموم غد ببـــــالي

فان غـــــــدا له رزق جديد

أسلم ان أراد الله امـــــــــرا

فأترك مـــــــا اريد لما يريد

سادت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عمل أسواق الجملة سواء للمواد الغذائية أو سواها، وعلى أثر ذلك قامت البلديات في المدن بأنشاء أسواق متخصصة لهذه الأغراض، فمثلاً أنشأ سوق للمواد الغذائية سمي

(أوبتفي -رنيك) متخصص ببيع المواد على اختلاف أنواعها وأشكالها وبأسعار الجملة وكانت قوافل التجار تأتي من مختلف أنحاء العالم عن طريق الميناء، أو عبر القطارات، أو المطارات، وسواء بشكل نظامي، أو تهريب عبر سبل شتى ترفد السوق بأشكال متنوعة وجديدة، ومثل هذه الأسواق صممتها البلدية في مواقع متطرفة وجهزتها بالماء والكهرباء وعبدت طرقها، ووفرت لها الحراسة الأمنية، والإدارة التي سهلت ديمومته في العمل في السوق، وعمل في هذه الأسواق الروس، والأوكران، ونسبة كبيرة من الأجانب الذين إستقر بهم الحال في مدينة اوديسا، فمنهم من حالفه الحظ ونجح في تكوين رأس مال بصوره سريعة إستطاع تأمين نفسه بشراء شقه وسيارة ورأس مال معين للعمل، وطال للبعض أكثر، ومنهم من لم يحالفه الحظ في هذا المجال.. هكذا هي الحياة ايقاعاتها متغيرة رغم انها تبدو في بعض الأحيان ثابتة أو مستقرة.

ومن الأسواق الأخرى سوق (السيدموي)، وهو سوق

يبتعد عن المدينة سبعة كيلومترات، وكلمة سبعة في اللغة الروسية سيّم، ومنه جاءت سيدموي، على هذا النحو أحيط السوق بسياج نظامي وادارة مستقلة وحراسة، وفيه الاف المحلات فيها، وتباع الملابس والحقائب على أنواعها وشتى أنواع العدد المنزلية والصناعية وتطور الى بضائع مختلفة ومتنوعة ومتعددة الأشكال والأصناف حتى بات سوقاً مشهوراً للجملة وفيه جميع أنواع الخدمات من تبديل العملة الى إستيراد أنواع شتى من البضائع، وطرقه معبدة وفيه الكهرباء، والماء، والعمال، والخدمات المتعددة التي تتطلبها الأسواق، حتى المخازن،ء ومن ثم نشأت شتى أنواع العلاقات التجارية بين جميع الأطراف، وتطورعمل السوق، الى أن اصبح مركزاً تجارياً مهماً لأطراف مدينة اوديسا وغيرها من المدن الأخرى، التي يأتون ليتبضعوا منه، وكانت إدارة السوق تتقاضى مبلغاً عن المساحات المؤجرة للأشخاص، على إختلاف إنتماءهم، وكذلك تستوفي منهم الضرائب، وغير ذلك من الرسوم الأخرى ومثل هذه

الأسواق الناشئة والجديدة شيدت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وقد إستطاعت اداره المدينة عبر هذه الأسواق، الى منع حدوث الفوضى داخل المدن، وحصرتها في مثل هذه الأسواق، وهي في رأيّ تجربة ناجحة، وتسهل المراقبة، وجني الضرائب، وفي ظل الانفراج نحو الخارج الذي كان محصوراً بسبب الحصار الاقتصادي، الذي يحظر السفر، والاستيراد، راجت مثل هذه الأسواق، من خلالها تم دخول مواد جديدة الى السوق فضلاً عن تشعب المواد حتى ضمت المواد الغذائية ايضاً، ومواد التجميل وسواها من الحاجات.

بدأ خلف عمله في بداية الأمر في سوق المواد الغذائية الذي يسمى (اوبتفي -رنيك) والمخصص فقط للمواد الغذائية، في المحل الذي منحه له صديقه الشيشاني زاوو، وأستطاع خلف خلال فتره قصيرة من بناء شبكة من العلاقات، مع الشباب العرب العاملين في السوق، وخلف إجتماعي، ولبق وميال للتعارف، والعلاقات، ومن خلال هذه العلاقات يشعر خلف بالسعادة والبهجة.

الأصدقاء الجدد كان أغلبهم من العرب، وتتوفر لديهم بضائع مختلفة، ومتنوعة إستطاع خلف من خلال هذه العلاقات، أن يجهز محله ببضائع شتى، بطريقه الدفع بالآجل، وعلى أثر ذلك توسعت تجارته خلال فتره قصيرة، وازدهرت، وبدل المحل الواحد أصبح لخلف خمسة محلات في السوق، وتحسن وضعه المادي وزاد نشاطه التجاري، وعلى ما يبدو أن الحظ بدأ يبتسم له.

يقول الحريري:

يا طالب الدنيا الدنيـــــة إنـــها
شرك الردى وقرارة الأكـــــدارِ
دار متى ما أضحكت في يومـها
أبكـــت غداً تبـــــا لها من دارِ
غاراتها لا تنقضي واسيـــــرها
لا يفتدى بجلائـل الاخطـــــارِ

لخلف صديق سوري تربطه معه صداقة منذ أيام

الدراسة، وهو تاجر قماش ذو إمكانية مادية جيدة، حيث هو من عائلة غنية أصلاً، وأقترح على خلف بأن يستورد له مواد غذائية من بولندا، وكان حينها السوق رائجاً، لان اغلب ما متوفر في السوق عبارة عن بضائع غالبيتها وطنية، والبضائع الأجنبية قليلة وربما نادرة أو قليلة، ولاسيما بعد الانفتاح والانفراج تعد البضائع الأجنبية مرغوبة وسريعة التصريف ومربحة جداً، مما أغرى وشجع خلف و لاسيما وأن خلف اخذ بعض النماذج منها على باب التجريب وعرضها في محلاته الخمسة، وكانت ذات مردود في الربح سريع وسؤال متكرر عليها من الزبائن، أغرى خلف مما جعله يعقد إتفاقاً مع صديقه بأن يكون هو الوكيل المعتمد للبضاعة في السوق، بإعتبار أن النتائج سبقتها رؤية مسبقة كانت ثمارها مغرية، وفعلاً تمت العملية بنجاح واستورد صديقه السوري البضاعة المتفق عليها ،على أن يسدد ثمنها لاحقاً بطريق الاجل حين توفر السيولة النقدية. وبعد فرح وسرور بإنفراج الحال حدث مالم يكن في الحسبان،

حين حدث الكساد التجاري في عموم أوكرانيا عام ١٩٩٦، وبات الأقبال على شراء المواد الغذائية ضعيف جداً، وإنكمش السوق وأصبح عسيراً، حتى انه حاول جاهداً بيع البضاعة ولو بسعر الكلفة، لغرض إسترجاع رأس المال، لكن دون جدوى وضاعت الآمال وتبدَ الحلم.

يقول الشاعر:

ليس لي فيـــــــــك حيلـــــــة

غير صَبري على القضـــــــــــا

وبكائي على الوصـــــــــــآل

الذي كان وانقضـــــــــــــى

ليتنـــــــي تبت توبـــــــــة

وقضى الله ما قضـــــــــــــى

والقول لابي العتاهية:

يا نَفْسِ! ما هـــــوَ إلاّ صَبرُ أيّامِ

كأنَّ لَذَّاتِهَا أضـغاثُ أحـــــلام

يا نفس جُوزي عن الدنيا مبادرةً

وخل عنها فأن العيـــــش قدامِى

والحـال بهـذا الشـكل تضـاعفت الـديون علـى خلـف، الـذي ترتـب نتيجـة اسـتيراد المـواد الغذائيـة الأجنبيـة، فضلاً عن مبالغ ايجار المحلات التي يجب أن تسدد لإدارة السوق، ناهيك عن الضرائب المتوجبة عليه، إضافة الى قوائم الكهرباء، والماء، والحراسة، واجورالعاملين، وغيرها، حيث يتوجب على خلف تسديد مبلغ لا يقل عن ٤٠٠٠ دولار شهرياً والحال بهذا الشكل، والحقيقة هذه المبالغ كانت كبيرة بالنسبة لخلف وازاد الوضع سوءاً حين تراكمت عليه الديون، وأربكته مما إضطره الى بيع المحلات، وأعاد كثير من المواد الغذائية الى أصحابها، وأصبح مجمل دين خلف بعد التصفية (٢٥٠٠٠) دولار، وهذا الثمن كان كبيراً يعادل ثمن خمس شقق سكنية في أوكرانيا، لك ان تقيس حجم محنة خلف. ضاقت به السبل مرةً أخرى، جمع قواه وذهب الى صديقه السوري وعرض عليه الأمر وقال له أنت زميل دراسة، وصديق وفي، وأنت أدرى بحالي، وقد خسرت تجارتي، ولم

أكن مغامراً أو مقامراً أو ممن يرتاد صالات القمار، أو حتى البارات، ولم أكن متسكعاً أو حتى مبذراً والحال بهذا الشكل، تقبل صديقه حديثه بودٍ بالغ وهو ما ظنه به، وطرح على خلف سؤالاً مهماً: كيف لي ان أساعدك؟

صديقه السوري دكتور فارس زميل دراسة طلب منه خلف أن يمهله بعض الوقت ليسدد ما في ذمته من أموال، وخلف كان يثق بقدرته، وبرحمة الله، وقال لصديقه أنت يا صديقي أدري بحالي، ولا يوجد لي معين، أو من أستدين منه لا سدد ما بذمتي. لم يرد الدكتور فارس طلباً لخلف يوماً، ويحترم خلف، ويقدم له المساعدة دائماً، دون مقابل وأبدى له الموافقة والمساعدة التي يطلبها دون أيه شروط.

قال الامام علي بن ابي طالب (ع):

اصبرْ قليلاً فبعد العسر تيسيرُ

وكل أمر له وقتٌ وتدبيـــرُ

وللمهيمنِ في حالاتنا نـــظرٌ

وفوق تقديـــــرِنا لله تقديرُ

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الـــــدهر يوما بنكبة

فأفرغ لها صبرا ووسع لها صدرا

فإن تصاريف الزمـــــان عجيبة

فيوما ترى يسرا ويوما ترى عسرا

ويقول الشاعر عن الصداقة:

يا صاحبي، وهواك يجذبني

حتّـــى لأحسب بيننا رحما

مـــــــا ضرّنا، والودّ ملتئم

أن لا يكـون الشّمل ملتئما

النّاس تقرأ ما تسطّره حبرا،

ويقـرأه أخـــــــوك دما

زاد الوضع سوءاً في سوق المواد الغذائية، حين حدثت مشاكل لم تكن في الحسبان، بين إدارة السوق ودائرة الضريبة، وتطورت الى طرق مسدودة، مما دفع كثير من

أصحاب المحلات الى ترك محلاتهم دون مقابل، الى إدارة السوق، تفادياً للخسائر، التي تضاعفت عليهم بالرغم من انهم اشتروا المحلات بمبالغ ليست بالقليلة لكن كما يقال لكل وقت أذان.

كان علاقة خلف بإدارة السوق جيدة، بل ممتازة، مما حذا بإدارة السوق الى دعوة خلف لاستأجار مجموعة من المحلات ذات المواقع الاستراتيجية في السوق، بالاسعار الرسمية، وسرعان ما ابتسم له الحظ مرةً أخرى، وتحسن الحال بسرعة، وتضاعفت قيمة المحلات، فأستغل خلف الفرصة وباع بعضها، وإستأجر قسم منها للغير وأستطاع أن يجني أرباحاً سريعة مكنته من تسديد دينه لفارس (ال ٢٥٠٠٠ دولار)، وسرعان ما قُفلَ هذا البابَ وكأنه فتح خصيصاً له لهذا الغرض. خرج خلف من هذا السوق والى الأبد مقرراً عدم الدخول اليه مجدداً.

يقول البرعي:

عسى فرجٌ يأتي بهِ اللهُ عـــاجلاً

يسرُّ بهِ الملهوفُ إنْ عَمهُ اللهفُ

فمنْ محنِ الأيامِ قلـــــبي معذبٌ

ألمَّ بروحي قبلَ حتفِ الفنا حتفُ

فكمْ همَّ صرفُ الدهرِ يصرفُ نابهُ

عليَّ فجاء الغوتُ وانصرفَ الصرفُ

ولمْ أعتصمْ باللهِ إلا ومدَّ لـــــــــي

منَ البرِّ ظلاًّ في رضاء لهُ كـــــفَ

بعد خروج خلف من هذا السوق، بدأ مرةً أخرى رحلة البحث عن عمل جديد في مكانٍ اخر، وفي الحقيقة خلف لم يكن شخصاً سهلاً أو بسيطاً يستسلم للظروف بل كان مثابراً باحثاً ومكافحاً وعلى ما يبدو أن هذه الصفات رافقته منذ الصبا، لذا قرر تغيير الطريق ليسلك طريقاً اخراً يجرب حظه الذي تبعثر، لهذا عقد العزم للسفر الى القاهرة مرةً أخرى لأستيراد الرز المصري، محاولاً إيجاد مصدر جديد للرزق يضمن له العيش الهانئ المستقر.

قال الشاعر:

سافر تجد عوضاً عـــمَّن تفارقـــــهُ
وَانْصِبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِـي النَّصَبِ
ما في المقامِ لذي عـــقلٍ وذي أدبٍ
معزة فأترك الاوطـــــــان وأغترب
إني رأيتُ وقوفَ الماء يـفســـــــدهُ
فإنْ جرى طَابَ وَإنْ لَمْ يَجْرِ لَـمْ يَطِبِ
والبدر لولا أفول منه مـــا نظـــــرت
إليه في كل حين عيـــــــنُ مرتقبِ
والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما قنـــصتْ
والسَّهمُ لولا فـــراقُ القوسِ لم يصبِ
والتِّبْرَ كالتُّرْبَ مُلْقَى فـــــي أَمَاكِنِـه
والعودُ في أرضه نوعً مـن الحطـــبِ
فإن تغرَّب هذا عـــــــزَّ مطـــلبهُ
وإنْ قـــــامَ فلا يعلو الى رتـــــبِ

***

[٢١]

ضاق الحال مرة أخرى بخلف وهو يبحث عن عمل جديد، وبعد العسر يسر، وكما ذكرت سابقاً كان من بين الأسواق الجديدة التي نشأت في مدينة اوديسا مجموعة من الأسواق واحدها كان سوق السيدموي الذي ذاع صيته وكثرت قصص وروايات عنه، لذا قرر خلف أن يجرب حظه في هذا السوق هذه المدة.

سوق كبير وشامل يضم مهن كثيرة، وفيه تجار عرب، وأجانب متعددي الانتماءات من بلدان شتى، غير أن بعضهم تحسن حاله بعد الانفتاح وتطورت تجارته، وأصبح مستورداً أو تاجر جملة، ويتكون السوق في بدايته من مجموعة من الحاويات الحديدية والتي استغنت عنها الشركات البحرية او البرية الناقلة في الموانئ وركبت فوق بعضها البعض، حيث أستخدم الجزء الأسفل محلاً أو معرضاً للبضاعة، والجزء العلوي أستخدم مخزناً بواسطة سلم حديد متنقل وتكونت

الالاف مؤلفة من المحلات على هذا الشكل، ثم ظهرت مهن عديدة وظهرت محلات حديثة تم انشاؤها بهياكل حديديه نظامية، وتطور السوق وأمتد حتى أنه احتوى على مخازن، وخدمات شتى، وسرعان ما تطور هذا السوق حتى أعتمدت عليه ضواحي مدينه اوديسا ومدن أخرى لا تحتوي على ميناء وربما دول مجاورة لأوكرانيا قريبة من اوديسا كما يشاع، وكانوا يشترون البضائع عبر تجار صغار وهكذا تطور السوق ونما، وأصبح ملاذاً ومنقذاً لكثير من الناس في الرزق حتى في المضاربة بالعملات الأجنبية وغير ذلك، واستطاعت إدارة السوق من تنظيم ذلك وعبدت طرقه ووفرت الخدمات اللازمة من كهرباء، وماء، وحمامات، ومطاعم، ويبدأ العمل في السوق عادةً بحوالي الخامسة صباحاً ويستمر حتى الثالثة مساءً، ويوم العطلة أو الراحة هو يوم الجمعة، في حين العطلة الرسمية في البلاد هي يوم الاحد.

تتمتع مدينة اوديسا بموقع استراتيجي هام ويعود تاريخ مدينة اوديسا الى عام ١٤١٥م عندما كانت قصراً

وميناءً في دوقية ليتوانيا العظمى حين كانت تسمى كاتسيربييف. وزاد من أهمية السوق الانفتاح الذي تم عام ١٩٩١م حيث أسس السوق في ذاك الوقت، وساعد في ذلك كون مدينة اوديسا ميناءً بحرياً، فضلاً عن وجود عدد غير قليل من الأجانب، الذين استقروا وتزوجوا في المدينة، وولد لهم جيل جديد ممزوج بنكهة شرقية، وتأثر بعضم بالدين الإسلامي ومنهم من بقي على دين امه مسيحياً أو ربما من ديانات أخرى، وهكذا هي الحياة.

يقول الله في كتابه العزيز:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . سوره الروم الآية (٢٠).

وتدريجياً تطور السوق فأصبح بورصة تحدد فيها الأسعار والسلع كافة، وزاد التنافس فيه وأتسع ومنهم من نجح وأشتهر، وطاب له الحال، ومنهم من إبتعد مولياً عنه، وحدثت في السوق قصص كثيرة منها ما كتب لها النجاح والثراء، ومنهم من أصيب بالفشل أو حتى غادر أوكرانيا خائباً باحثاً عن رزق في مكان أخر، او

عاد أدراجه الى وطنه، وهكذا هي الحياة تحتوي على شتى القصص والحكايات بعضها مؤلم وموجع وبعضها فيه كثير من قصص النجاح والتوفيق والفكاهة والغرام.

ذهب خلف الى السوق باحثاً عن أصدقاء يتعاونون معه أو تجار، يتفق معهم على تصريف بضاعة ما يوفرها لهم، وغيرها من الاماني، التي بقي أياماً يحلم بها. بينما هو يتجول في السوق يؤدي التحية على هذا وذاك أوقفته سيدة وقورة روسية وكأنها مرسله له من السماء، قالت له دون سابق معرفة: أتريد ان تشتري محلاً هنا؟

الطريف ان خلف بعد تسديده كل الديون لم يتبقى عنده سوى (١٢٠٠) دولار، وإذا بها تقوده الى المحل، وتفتح له الباب، وتقول له هذا هو المحل، وأريد مقابله (١٢٠٠) دولاراً، فقط علماً ان المحل يقع في موقع استراتيجي، أو لنقل مهم أو في موقع جيد. اعترت خلف دهشة ما بعدها دهشة وكأن المرأة ملك صالح وتعلم ما في جيبه، وافق خلف على الفور ثم سرعان ما أعطته المرأة المفتاح،

وكتبت عنوانها على ورقه صغيرة وقبل المغادرة قالت له إن كنت راغباً بالمحل يمكنك القدوم مساءاً لنكمل إجراء التعاقد وتسدد المبلغ، وودعته وذهبت الى غايتها.

قال الامام علي (ع):

بلادُ اللهِ واسعةٌ فَضاهَا

ورِزقُ الله في الدُّنيا فسيحُ

فقلْ للقاعِدينَ على هَوانٍ

إذا ضاقتْ بكم أرضٌ فَسيحُوا

وقال غيره:

أشد من فاقة الزمان

مقام حرٍ على هوانِ

فاسترزق الله واستعنه

فإنه خير مستعانِ

وإن نبا منزل بحرٍ

فمن مكانٍ إلى مكانِ

كان خلف يعلم علم اليقين أن قيمة هذا المحل تساوي

ضعف هذا السعر تقريباً، وعلى اية حال فالحمد لله مراراً وتكراراً فهو صاحب النعم، ومقرر المصائر والارزاق، ذهب خلف الى دارها مساءً وأتم الصفقة، ثم جاءت المرأة في الصباح وسجلت له المحل في إدارة السوق وودعته متمنية له النجاح والتوفيق.

***

[٢٢]

أمتلك خلف محلاً في سوق السيدموي من ماله الخاص الذي جمعه بشق الانفس، وأصبح إزاء مشكلة جديدة وتساؤل مهم ماذا سيفعل بالمحل، وما هو نوع النشاط الذي يجب عليه أن يسلكه وبين الحيرة والتفكير، وبينما هوه يتجول في السوق محاولاً إكتشاف طريق ما او ثغرة في نفق يستطيع الولوج منه، داعياً الله أن يسهل له الأمور مثلما يسرها في إيجاد تلك المرأة، واذا بأحد الاخوان العرب المصريين من معارفه السابقين يوقفه في طريق السوق ويعرض عليه الاتي: إنه يمتلك بضاعة لكنه لا يمتلك محلاً، وبضاعته كثيرة، ساله خلف وقال له عندي محل ولكن أتعرف قيمته: قال له المصري أعلم أن قيمة المحل لا تقل عن (٢٤٠٠) دولار.

إتفقا معاً على القيمة والشراكة بسرعة البرق على أن يدفع المصري (١٢٠٠) دولار ويكونان شركاء في المحل مناصفة وعلى بركة الله اتفقا وقرر خلف السفر

للقاهرة لإتمام إتفاق شراء الرز المصري الذي سبق وأن إتفق عليها.

مدينة القاهرة اهم مدن مصر العربية، وهي من أكبر المدن العربية أيضاً من ناحية السكان حتى فاقت نفوسها العشرة ملايين، ومنهم من يقول فاقت حتى الأربعين مليوناً. والقاهرة ذات تنوع ثقافي، وحضاري، وشهدت العديد من الحقب التاريخية، وفيها متحفاً مفتوحاً يضم اثاراً فرعونية وإسلامية ويونانية ورومانية وقبطيه، ويعود تاريخ المدينة الى نشأه مدينة أون الفرعونية أو هليوبولس "عين شمس حالياً"، والتي تعد واحدة من أقدم مدن العالم القديم. ويعود تاريخ القاهرة بطرازها الحالي الى الفتح الإسلامي لمصر على يد عمر بن العاص عام ٦٤١م وانشائه مدينة الفسطاط. ومع دخول الفاطميين مصر قادمين من أفريقيا، التي هي تونس اليوم بدأ القائد جوهر الصَملي بناء العاصمة الجديدة للدولة الفاطمية بأمر من الخليفة الفاطمي المعتز لدين الله في عام ٩٦٩م وأطلق عليها الخليفة المعز

أسم القاهرة، وهي مدينة الالف مئذنة، ومصر المحروسة وقاهرة المعز، وغيرها من التسميات.

تعد القاهرة مقراً ومركزاً لكثير من المنظمات العربية، والعالمية، فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً. تعاقد خلف كما ذكرت سابقاً مع أحدى الشركات التي يمتلكها مصري، ثم طلب منه المصري أن يرافقه الى أوكرانيا اولاً ليطمئن على بضاعته ونوع السوق وخاصةً بعد أن افضى له عن اسم شريكه المصري، ولا يدري أن هذا الشخص ممثل الشركة كان يبيت له امراً ما.

سافر معه الى مدينة اوديسا، وحين التقى مع شريكه المصري وتبين أنه قد احتال عليه سابقاً ببضاعه ولم يسدد ثمنها وهرب الى أوكرانيا من القاهرة.

كان خلف قد تعاقد مع المصري ممثل الشركة بمبلغ قدره ٧٠٠٠ دولار ليورد الرز له، وكان قد سدد له المبلغ كاملاً على أمل أن يتم شحنها لاحقاً، وحين وصلا معاً الى مدينة اوديسا، والتقى بشريكه. بدأت المشكلة والعتب والحساب ولكن المفاجأة والضربة

القاضية التي تلقاها خلف هي ان المصري ممثل الشركة غادر أوكرانيا تاركاً رسالة لخلف يقول فيها أنه استوفى هذا المبلغ عن دين شريكه ومرةً أخرى يقع خلف في فخ الاحتيال!

يقول الشاعر السوداني ادريس محمد جماح

إن حظي كدقيقٍ فوق شوكٍ نثروه
ثم قالوا لِحُفاةٍ يومَ ريحٍ اجمعوه
صعب الأمر عليهم قلت ياقوم اتركوه
إن من أشقاهُ ربي كيف أنتم تُسعدوه

احتار خلف في حل هذه المشكلة ولايدري كيف الخروج منها، وخاصة وأن مبلغ الـ (٧٠٠٠ دولار) كان قد استدانه من صديقه الدكتور فارس. ذهب الى صديقه فارس وعرض عليه الامر، قررا ان يجتمعا معاً خلف وفارس والشريك المصري وبعد الضغط عليه وافق المصري ان يترك المحل ببضاعته الكاملة والمقدرة من قبل الأطراف ب (٧٠٠٠ دولار) على ان يتنازلا معاً عن المحل في

إدارة السوق الى دكتور فارس باعتباره هو صاحب المال وحلت المشكلة على هذا النحو.

لم يكن فارس زميلاً وصديقاً بل كان أخاً وفياً ورفيق درب في الدراسة الأولية والعليا وعلى أية حال قرر فارس أن يبيع المحل ببضاعته الى خلف بمبلغ ال (٧٠٠٠ دولار) تعاطفاً معه باعتباره وقع في الفخ وأحتالوا عليه نتيجة طيبة خلف وثقته بالأخرين وربما لبساطته التي تعود عليها خلال تعامله مع الاخرين وعلى أيه حال قال له فارس يمكنك تسديد المبلغ خلال عام دون أرباحٍ ومرةً أخرى يحالف خلف الحظ وينجو من الفخ، وفضلاً عن ذلك فان أسعار المحلات ترتفع بشكل مفاجئ وتصبح قيمة المحل خمسه وعشرون الف دولار أمريكي مما حذا بخلف أن يسارع الى ببيع المحل مع أول عرض يأتيه، ثم يذهب بالمبلغ الى صديقه فارس ويسدد له المبلغ ويخرج من عنده مرتاح الضمير وشاكراً له، ويخطو خطوةً أخرى مهمه جداً في حياته حين يشتري شقة بقيمة سته عشر الف دولار حل من خلالها اعقد مشكله وهي مشكلة

السكن ويتخلص من مبلغ الايجار الذي طالما انهكه واقلقته، لكن رحمة الله واسعة أنقذته من هَمين في وقت واحد بالأمس كانا بعيدين واليوم اصبحا من الماضي.

قال بعض الشعراء:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله

عند الإله وأنجاه من الجـــــزع

من شدلَّ بالصبر كفاً عند مؤلمـــةٍ

ألوت يداه بحبل غير منقطـــــع

وعن الصديق القرين قال طرفه بن العبد:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم

ولا تصحب الأردا فتردى مع الردي

عن المرءِ لا تسأل وسل عـن قرينه

فكل قرينٍ بالمقـــــارن يقتـدي

***

[٢٣]

بدأت رحلة خلف الجديدة بالبحث عن عمل اخر لعله يجد فيه مستقراً، ويخرج من هذا التيه، فأتجه الى مجال أخر وهو إستيراد نبات الكركديه، والكركدبه نوع من النباتات ذات الجنس الحظمي، وينتمي الى النباتات الخبزية، واسمه العامي باللغة الإنكليزية Hibscus sabdariffa والكركديه تمتاز بزهورها الكبيرة والملونة وتتحول زهورها وأوراقها الى شاي أو شربت أحمر يساعد في علاج مجموعة متنوعة من الحالات المرضية مثل إضطراب المعدة وإرتفاع ضغط الدم، وتتوفر على شكل مكملات غذائية أيضاً. ويستعمل بصوره ساخنة أو باردة، وفي حالة إستخدامه كشاي تسخن الازهار المجففة منه ويستمر عليها لمده خمس دقائق ويضاف له السكر أو العسل حسب الرغبة.

وقديماً أستخدم الكركديه لخفض الكولسترول الضار، ويحتوي على مضادات التأكسد، ويقلل من

خطر سرطان المعدة ويحافظ على صحة الكبد والكلى وإنقاص الوزن وفي عدم الإمساك وسواها من الأمراض التي يعتقد أنه يؤثر عليها.

تزرع هذه النبتة في مصر والسودان بكثرة، وهي تمثل نوعاً جديداً، أو بضاعة جديدة على المجتمع الأوكراني، لهذا قام خلف بإستيراد هذه النبتة وما شجعه على ذلك أنه تعاقد مع مصنع في اوديسا لتعليبها على شكل شاي مصنع، وتعلب بشكل جاهز مما ساعد في تحسن وضع خلف المادي وتيسر له ارسال مساعدة الى أهله في السودان حيث أسرته كبيرة وفي حاجة لمساعدته وقد كان موقفاً نبيلاً منه ان يفكر بهم.

يقول الشاعر:

إنْ كان عُهودُ وصلكمْ قد دَرَسَتْ

فالرُّوحُ إلى سواكمُ ما أنِسَتْ

أغْصَانُ هواكُمُ بقلبي غُرِسَتْ

مُنُّوا بوصالكمْ وإلا يَبِسَتْ

[٢٤]

الحياة جميلة بمواقفها تأتي مره بالثمار الكثيرة على أشكالها، ومرةً تختفي الثمار، فيها عسر ويسر، فرح ومرح وحزن، لكن خلف بشكل عام كان موفقاً ومحظوظاً خاصةً في حياته في أوكرانيا.

يقول محمود الوراق:

إلهي لك الحمد الذي أنت أهلهُ

على نعم ماكنتُ قط لها أهلا

أزيدك تقصيراً تزِدني تفضلاً

كأني بالتقصير أستوجِبُ الفضلا

اما رزق خلف فكان مفتوحاً ومضموناً على الدوام فالله سبحانه وتعالى يفتح له الأبواب ويسهل له الأمور وله كل الحمد، وعلى أية حال أعطاه الله شيئاً جميلاً يذكره باستمرار وهو حبه للناس وحب المساعدة وتقديم الخير وكما يصفها هو انه مغرم بل قل عاشق في تقديم المساعدة، وخاصة مساعدة السودانيين، ومن ثم العرب

والأجانب، وربما هذه العلاقات الأجتماعية والصداقات الكثيرة التي تمتع بها خلف كانت مفيدة له أيضاً حين فتحت له افاقاً أخرى، كانت تبدو مغلقة.

يقول الشاعر:

وليس أخي مـــن ودَّني بلسانِهِ

ولكن أخر من ودني وهو غائب

ومن مالهُ مالي إذا كنـت معدماً

ومالي له إنْ عـــض أعـــوزتهُ

أجمل المواقف التي يعتز بها خلف في حياته ما قام به تجاه والدته، فإلام مدرسة تقدم لنا كثيرا ولا تترجى مقابلاً، وكثيراً ما تضحي لأجل أبناءها، ولعل الأمومة واحدة وهي من نعم الله التي لا تحصى ابتداءً من الرضاعة الى الكبر، وأم خلف عانت كثيراً خاصةً بعد رحيل الأب مبكراً في مثل ظروف السودان الصعبة والمعقدة فضلاً عن كبر عدد العائلة، وعلى أية حال حالما تيسر الحال لخلف سرعان ما ارسل مبلغاً من المال

الى أمه لحج بيت الله، ولعل في هذه الخطوة حقق اجمل امنية لإمه، وحقق لنفسه زهواً وفخراً، ومثلت هذه الخطوة سعادةً لا توصف.

يقول أبو القاسم الشابي:

الأمُّ تلثُمُ طفلَها، وتضمُّه
حرَمٌ، سماويُّ الجمالِ، مقدَّسُ
تتألّه الأفكارُ، وهْي جوارَه
وتعودُ طاهرةً هناكَ الأنفُسُ
حَرَمُ الحياةِ بِطُهْرِها وَحَنَانِها
هل فوقَهُ حرَمٌ أجلُّ وأقدسُ؟
بوركتَ يا حرَمَ الأمومةِ والصِّبا
كم فيك تكتمل الحياةُ وتقدُسُ

ويقول معروف الرصافي:

هي الاخلاقُ تنبتُ كالنبات
إذا سقيت بماء المكرماتِ
تقوم إذا تعهدها المُربي
على ساق الفضيلة مُثمِرات

ويقول نزار قباني:

صباحُ الخيرِ يا حلوه

صباحُ الخيرِ يا قدّيستي الحلوة

مضى عامانِ يا أمّي

على الولدِ الذي أبحر

برحلتهِ الخرافية

وخبّأَ في حقائبهِ

صباحَ بلادهِ الأخضر

وأنجمَها، وأنهُرها، وكلَّ شقيقها الأحمر

وخبّأ في ملابسهِ

طرابيناً منَ النعناعِ والزّعتر

وليلكةً دمشقية.

أنا وحدي...

دخانُ سجائري يضجر

ومنّي مقعدي يضجر

وأحزاني عصافيرٌ...

تفتّشُ – بعدُ– عن بيدر

عرفتُ نساءَ أوروبا.
عرفتُ عواطفَ الإسمنتِ والخشبِ
عرفتُ حضارةَ التعبِ.
وطفتُ الهندَ، طفتُ السندَ، طفتُ العالمَ الأصفر
ولم أعثر
على امرأةٍ تمشّطُ شعريَ الأشقر
وتحملُ في حقيبتها...
إليَّ عرائسَ السكّر
وتكسوني إذا أعرى
وتنشُلني إذا أعثَر
أيا أمي
أيا أمي

ثم يقول:
ومات َ أبي
ولا زالت تعيشُ بحلمِ عودتهِ
وتبحثُ عنهُ في أرجاءِ غرفتهِ

وتسألُ عن عباءتهِ

وتسألُ عن جريدتهِ

وتسألُ حينَ يأتي الصيفُ

عن فيروزِ عينيه

لتنثرَ فوقَ كفّيهِ

دنانيراً منَ الذهبِ

سلاماتٌ

سلاماتٌ

وعلى كل حال فخلف تطبع وتعود على مساعدة اخوانه السودانيين القادمين للدراسة، أو العمل في أوكرانيا ومن ثم أصبح ولازال رئيساً للجالية السودانية في اوديسا، وكثيراً ما ينتابه فرح حين يقدم مساعدة لسوداني وعلى ما يبدو أن ما مر به من ظروف معقدة جعلته جديراً بذلك، والى جانب هذا وذاك فهو يعلم علم اليقين عن وضع السودان السياسي المعقد.

قال المبرد:

ما القـــرب إلا لمنْ صحت مودتهُ

ولـــم يخنكَ وليس القرب للنسبِ

كم من قريبٍ دَوي الصدر مضطغنٍ

ومن بعيدٍ سليـــــــمٍ غير مقتربِ

ويقول المغيرة بن شعية:

وليس الذي يلقاكَ بالبشر والرِضا

وإن غبت عنـــــه المتك عقاربهُ

***

[٢٥]

كانت حياة خلف حافلة وفيها كثير من المحطات والأصدقاء والمعارف وربما لا يستطيع خلف البوح بكثير من التفاصيل لاعتبارات شتى، حتى أن بعضهم أو أغلبهم لايحبون أن تذكر خصوصياتهم وربما يعتبرونها أسراراً. الصداقة في الغربة لها قيمة إعتبارية ومعنوية كبيرة، فالأصدقاء هناك مثل الأهل، ويوجد بينهم اجتماعيون يحبون العلاقات غير أن البعض شاذ عن هذه القاعدة، وأعتاد خلف عن إحترام أصدقاءه رغم إختلافات الرأي والميول والانتماءات السياسية، فلا يوجد رأي ثابت، وعلى أية حال الحياة هكذا متغيرة لا تستقر على حال، ولكنها على ما يصفها خلف كانت منصفه معه، وأعطته الكثير، إن لم يكن مباركاً بفضل دعاء الوالدين ثم إن هنالك الكثير من الظروف التي تؤثر على الانسان ولكل إنسان وجهة نظر في الحياة.

يقول شكسبير:

التدقيق في أتفه التصرفات قد يهوي بك إلى الجنون، لذا تغافل مره وتغابى مرتان.

وقال الفضيل بن عيال:

الا ترون كيف يزوي الله الدنيا عمن يحب ويمررها عليهم تارة بالجوع ومرة بالحاجة كما تضع الام الشقيقة بولدها تفطمه بالصبر مرة وبالحضض أخرى وانما تريد إصلاحه.

ويقول الشبراوي:

وإذا مسكَ الزمان بضـــــــرِ

عَظمت دونه الخطوبُ وجلت

وأتتْ بعده نَوائب أخـــــرى

سَئمتْ نفسك الحياةَ ومَـــلتْ

فاصطبر وانتظر بلـــوغ الأماني

فالرزايا إذا توالت تولـــــت

يعتز خلف كثيراً ببعض الأصدقاء، ويتفاخر بهم وبمعرفتهم مثل الدكتور فارس عبد الكريم الذي طالما وقف الى جانبه في السراء والضراء.

وقال الشاعر:

تَكَثَّرْ مِنَ الإِخْوانِ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُمْ
عِمَـــــادٌ إِذا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وظَهِيرُ
ومَا بِكَثِيرٍ أَلْفُ خِلٍّ وَصَاحِـــــبٍ
وَإِنِّ عَــدُواً وَاحِــداً لَكَثِيـــــــــرُ

ومن الأصدقاء الذي يعتز ويتفاخر بهم أيضاً ويعتبره مثالاً في المثابرة والجد صديقه الدكتور عدنان كيوان، الذي طوع الظروف القاسية وبنى لنفسه صرحاً عالياً حتى أنه أصبح أحد ركائز أوكرانيا. وعدنان كيوان رجل اعمال أوكراني من أصل سوري، وهو من مواليد درعا في سوريا ١٩٦٢م، ومن اسرة متواضعة درس الدكتوراه، في الهندسة المدنية في مدينة اوديسا، وتزوج من فتاه أوكرانية، وله ثلاثة أبناء، حالفه الحظ بعد

إنهيار الاتحاد السوفيتي في تجارة الحديد والصلب وأعمال أخرى وأصبح ملياردير، وانشأ عدة شركات للبناء، وسواها، ومنها شركة قدور غرب لأنشاء الأبنية السكنية والتجارية، وقد انجز اكثر من خمسين مشروعاً تجارياً، ويقدر عدد العاملين في شركاته بحدود (١٥٠٠٠) موظف، وأنشأ مركزاً إسلامياً في مدينة اوديسا، ولديه أعمال خيرية كثيرة ويمثل قصة نجاح عربي في أوكرانيا.

على حد تعبير الدكتور خلف أن صديقه الدكتور عدنان كيوان كان يطمح أن يكون وزيراً للكادحين والفلاحين والمضطهدين العرب لكنه أصبح شيئاً اخر.

يقول خلف انه لم يندم على شيء في حياته إطلاقاً ولو أعيد التاريخ وخير، لاختار نفس الحياة والشيء الوحيد الذي ندم عيه هو عدم زواجه المبكر، وعلى حد تعبيره لو كان بهذا العقل لتزوج في السنة التحضيرية الأولى. وهو سعيد بزوجته وفخور بها لأنها وقفت الى جانبه في السراء والضراء وتحملت معه ظروفاً قاسية

مـروا بهـا معـاً، فضـلاً عـن كونهـا أمـاً لابنـه البكـر راشـد الـذي أصبـح محاميـاً في إحـدى الشـركات ولابنتـه امنـه صاحبه الثانيـة عشـر مـن عمرهـا. إضافه الى كـل ذلـك فهـو يكـن لهـا الأحـترام والتقـدير لأنهـا تحملـت فـرق الثقافـات بـين المجتمـع الفلاحـي السـوداني متمـثلاً بـه والمجتمع الاوكراني بصورتها.

يقول الشاعر:

بلاني الحـــبٌّ فيكَ بما بَلاني
فشأني أن تَفيضَ غُروبُ شاني
أَبيتُ اللَّيلَ مُرتَفِقاً أُنـــــاجي
بصِدقِ الوَجْدِ كاذبةَ الأمـاني
فتَشهَدُ لي علـــى الأَرَقِ الثُرَيّا
ويَعْلمُ ما أُجِنٌّ الفَرقـــــــدانِ
فيا وَلَعَ العـــــواذلِ خَلِّ عنّي؛
ويا كَفِّ الغَـــرامِ خُذي عِناني

***

[٢٦]

المصائب لا تأتي فرادى، بل في كثير من الأحيان مجتمعة، وبعض المصائب مؤلمة حد العظم، أولها وفاة أخيه الأكبر فضل المولى في عمان على اثر مرض عضال، رحل عمود العائلة الذي يتكئون عليه، وهو من وقف الى جانبهم وقت رحيل الاب الى رحمة الله الواسعة، وهو من قادهم الى بر الأمان وساندهم رغم إمكانياته المتواضعة وكان أباً ثانياً لهم ولم يكن رجلاً عادياً بل مناراً فكرياُ لهم علمهم حب الوطن ونقل لهم الأفكار الشيوعية، وأرضعها لهم مع الوطنية وحب الناس، وكان مناضلاً ضحى من أجل العائلة كثيراً، تضحية لا تقدر بثمن عرفوا مقدارها حين كبروا وعرفوا مشقات الحياة. الموت قاسٍ لكنه النتيجة الحتمية لوجودنا.

يقول الله في كتابه الحكيم:

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ . سوره الواقعة الآية (٦٠).

هكذا هي الحياة كل شيء فان الا وجه ربك ذو

الجلال والاكرام.

يقول المهلهل:

أَهـاجَ قَذاءَ عَينِيَ الإِذِّكارُ
هُدُوّاً فَالدُموعُ لَها اِنحِدارُ
وَصـارَ اللَيلُ مُشتَمِلاً عَلَينا
كَأَنَّ اللَيـــلَ لَيسَ لَهُ نَهارُ
وَبِتُّ أُراقِبُ الجَوزاءَ حَتّى
تَقارَبَ مِن أَوائِلِها اِنحِدارُ
أُصَرِّفُ مُقلَتَيَّ في إِثرِ قَومٍ
تَبايَنَتِ البِلادُ بِهِـم فَغاروا
وَأَبكي وَالنُجومُ مُطَلِّعـاتٌ
كَأَن لَم تَحوِها عَنّي البِحارُ
عَلى مَن لَو نُعيتُ وَكانَ حَيّاً
لَقادَ الخَيلَ يَحجُبُها الغُبـارُ

والصدمة الثانية رحيل الفاضلة الحاجة أم خلف عام ٢٠٠٠م، رحلت الى جنات الخلد وقد حجت بيت الله الحرام، لم تكن أم خلف إمرأة عادية بل مَدرسة وكانت

قوية صلبة تحملت ظروف قاسية كثيرة بعد رحيل الاب المبكر.

عاشت أم خلف ظروفاً متقلبة، وضيف في الحال وشوق وحنين لأولادها وهم بعيدين عنها، رحلت أم فضل المولى وأم طارق وأم خلف وهي سعيدة لان إبنها حقق لها امنية الحج وكان خلف أكثر سعادة لأنه قدم لها شيء يفتخر به.

رحلت الحاجة القنوعة بأمر الله الى جنات الخلد.

يقول الله في كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . سورة البلد الآية (٢٧-٣٠).

ساد الاعتقاد عندي أن أكثر الأمهات في جنات الخلد، وأنا أرى أن كل الأمهات جميلات عزيزات مثل أمي رحمها الله.

قال ابن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعةٍ

وأيامنا تطوى وهـــن مراحلُ

ولم أر مثل الموت حــقاً فإنه

إذا ما تخطته الأماني باطـــلُ

والصدمة الثالثة وفاة أخيه الأصغر ورفيق دربه طارق عالم الفيزياء الطموح والمثابر والمكافح الذي أحب وطنه، توفي طارق عام ٢٠١٤ تاركاً اثراً بالغاً في حياه خلف وذويه.

يقول الشريف الرضي:

تركوا الدار فلمـــــــــــا

نزلوا القلب أقامـــــــــــوا

وقال بعضهم:

مالي وقفت على القبور مسلماً

قَبْرَ الـــحَبِيْبِ فَلَمْ يَرُدَّ جَوَابِي

أحبيبُ ما لك لا تردُّ جوابنـــتا

أنسيتَ بعدي خلة الأحـــبابِ

قَالَ الحَبِيْبُ: وَكَيْفَ لِي بِجَوَابِكم

وانا رهين جـــنادل وتـــــراب

أكل الترابُ محاسني فنســـيتكم

وحجبت عن أهلي وعن أترابي

فَعَلَيْكُمُ مِنِّي السَّـــــلاَمُ تَقَطَّعَتْ

مني ومنكم خلة الأحبـــــــاب

***

[٢٧]

الضربة القاضية التي واجهت خلف هذه المرة المرض، مصيبة ما بعدها أخرى يحمد عليها الذي لا يحمد على مكروه سواه، حيث تعطلت الكلى عند خلف وأصيب بفشل كلوي وتحول الى قطعة من اللحم هامدة، وحدثت هذه المصيبة بعد وفاة اخية طارق نهاية عام ٢٠١٤م حين وصل من السودان الى مدينة اوديسا، وكان منهكاً تماماً، نقل على اثرها الى مشفى مالينوفسكفا، وكان يظن انه أصيب بمرض معدٍ، أو نحو ذلك من الظنون التي تنتاب الانسان، غير أنه تفاجأ بتشخيص الأطباء!، حين أكدوا لهم أنه مصاب بالفشل الكلوي، وبحلول الساعة السابعة مساءً فقد خلف الوعي وتحول الى جثة هامدة لا يستطيع أن يحرك طرفاً ساكنا، كان حاله مرثياً وشعور بالعجز التام ورأس ثقيل وعيون بالكاد ترى الاخرين، وما زاد من إضطراب عائلته أن طبيب المشفى أخبرهم أن لا جدوى من بقاءه فيها، وكل

ما عليهم فعله هو الاستعداد لحدث الوفاه.

يقول الشاعر:

يا ابن آدم لا تغرَركَ عـافـــية

عليك شاملة فالعمر معـــدودُ

ما أنت إلا كزرع عند خُضـرته

لكل شيء من الآفات مقصودُ

فإن سلمت من الآفات أجمعها

فأنت عند كمال الأمر محصودُ

رفضت عائلته الانصياع لأمر الطبيب، أو الاستسلام، وقرر إبنه راشد وزوجته نقله الى مشفى خاص على وجه السرعة يقع في مدينة اوديسا يسمى انتوسانا، لكن المفاجأة والصدمة التي تلقتها العائلة برفض المشفى إستقباله بإعتبار أن حالته ميؤوس منها تماماً، مرةً أخرى يظهر صديقه الدكتور فارس عبد الكريم ويتدخل ومن خلال علاقاته، ويستطيع إقناع إداره المشفى بإستقباله على مسؤوليته ومسؤولية العائلة متعهدين بتحمل كافة النفقات المترتبة على ذلك.

بقي خلف راقداً في المشفى لمدة اثنا عشر يوماً متتالياً في حال يرثى له، وحزن وفقدان الأمل بل قل يأس وظلت المشفى تجري له عملية غسل كلوي مرتين في الأسبوع، على أمل أن يطيلوا قليلاً في حياته التي أضحت عبارة عن كابوس ما بعدة كابوس. وفجأة تحسنت حالته قليلاً لكن دون جدوى جرت الأمور بطريقة غريبة بعض الشيء حين قرر خلف السفر الى السودان عبر مصر لغرض توديع الاهل، بإعتبار أنه في حال ميؤوس منه، وخلال مروره بمصر أجري بعض الفحوصات الطبية والمختبرية التي تضمنت زرع أنسجة وغير ذلك من الأمور الطبية اللازمة، وعلى نحو ما عاد الى اوديسا لغرض توديع العائلة وأخبرهم بالحقيقة أنه قرر زراعة كلى تبرع له بها سوداني على أمل نجاح العملية وعاد مرة أخرى الى القاهرة.

ربما المرض من أصعب الأمور التي تواجه الانسان وبالتحديد الأمراض المستعصية، ومهما تكن حالة اليأس أو تتعقد الأمور فأن رحمه الله أوسع ولا حدود لها،

وعلى أية حال وعلى نحو ما تيسرله كل شيء وتكللت العملية بالنجاح وبقي في انتظار مدة من الزمن كي يتقبلها الجسم وله الحمد مرت الأمور على هذا النحو من الانحاء، ثم أنه مصاب بمرض السكري ويتوجب عليه أخذ حقنة من الانسولين للحفاظ على مستوى السكر وعلى أيه حال أصبحت صحة خلف بين مد وجزر محفوف بالمخاطر الجسام. ومرةً أخرى يقع في ازمة مالية شديدة حيث كلفته هذه العملية برمتها (٣٨٠٠٠) دولار، وهو مدين بهذا المبلغ الكبير لأصدقائه، الذين وقفوا معه في هذه الازمة بالغة الصعوبة.

يقول الشاعر السوداني ادريس محمد جماع

إن حظي كدقيقٍ فوق شوكٍ نثروه

ثم قالوا لحفاة يوم ريح اجمعوه

عظم الأمر عليهم ثم قالوا اتركوه

إن من أشقاه ربى كيف أنتم تُسْعِدُوه

لكن رحمة الله واسعة لا حدود لها حين نجا خلف من

الموت بشكل عجائبي، وسرعان ما بدأ رزقه ينمو مثل نبتة وصل الماء اليها ليحييها، ومثل أرض جذباء، حين فتحت له باباً جديدة، حيث أسس شركة لتقديم الخدمات المختلفة للمقيمين من العرب، والأجانب، ومن خلال عمله هذا استطاع خلف أن يجني مبلغاً من المال كما يقال في المصري (كويس) وتيسر له الحال وسدد كل ديونه، لا بل إستطاع ان يجمع مبلغاً معين يعينه على المستقبل.

تطور عمل خلف سريعاً جداً حتى أنه كان يشعر بسعادة غامرة من خلال المساعدة التي يقدمها للأخرين ويفرح أكثر حين تعلو الابتسامة على وجوه الاخرين، ثم إضافةً الى ذلك يتحين الفرص للعمل في مجال الاعمال الأخرى (البزنز)، محاولاً جهد الإمكان القفز فهو لا يعرف اليأس، طموح، والحقيقة سعادته تكمن في علاقاته الأجتماعية فهو مثل سمكة لا يستطيع مغادرة الماء، ولا يستطيع أن يستغني عن العلاقات الاجتماعية المتعددة، حتى أنه لا يرغب بمغادرة اوديسا ولله كل

الحمد صاحب النعم التي لا تحصى.

يقول المهيار:

خاطرْ فإما عِيشـــة حـــــــرةُ

يُرْغِدها العزُّ وإمـــــا الحِمـــامْ

زاحِمْ على باب العلـى واجتهد

لا بـد أن تـــدخل بين الزحامْ

رامٍ بها الليل فـــــــــما يُسْفر

المصباح إلا عن نقاب الـظلامْ

مَوَارقاً عـــــــن عُقْل أشطائها

مروق فوق السهم عن قوس رامْ

ميِّزْ مـــــن الناس على ظهرها

نفسَك لا مـــــيزةً تحت الرخامْ

من طلبَ الغايـــــة خطواً على

ظهر الهوَيْنا رام صـــعْب المرامْ

***

[٢٨]

يقف خلف كل صباح متأملاً حركة الناس وناظراً الى الطبيعة الخلابة في أوكرانيا وهوائها النقي، حين يرى الناس يهمون الى أعمالهم باحثين عن رزقهم، وهم يحملون طموحاتهم وهمومهم، ولكن ما يثير إعجابه في هذا البلد تواضع العلماء من شتى الأصناف وهم يعيشون في حالٍ من البساطة لا تغريهم أشياء كثيرة، يراهم وهم يركبون المترو والباص والترامواي وحالهم حال أي مواطن بسيط حين يقفون في الطابور بإنتظار دورهم وهم وافقين في الإشارة الضوئية أو امام الباص، أو عند مركز اداري أو اجتماعي، لابل يقومون بالأعمال الاجتماعية المختلفة فضلاً عن تنظيف أماكنهم في حالة عدم وجود منظفة، أو غير ذلك تواضعهم يكاد يكون فريداً، ويفرح الأستاذ أو البروفسور الحاصل على اعلى الشهادات حين يأتي اليه طالب العلم، وتغمره السعادة والفرح، كان خلف وغيره يحسدونهم على هذا

التواضع، غير ان المجتمعات على إختلاف أنواعها وأشكالها لا تخلو من الدون و الرديء ومخالف الأعراف والتقاليد.

وما اثار انتباه خلف وغيره من الذين أصبحوا جزءاً من هذا الشعب، تقبلهم للأخر وبالذات الأجنبي، حتى أن خلف وغيره لم يشعرون بالغربة على شكل من الاشكال وكثيراً ما كانت تربطهم علاقات صداقة فضلاً عن العلاقات الأسرية والاجتماعية الأخرى، وهذه العلاقات على اشكالها المختلفة كثيراً ما كانت تعود عليه بالفائدة، وسرعان ما مرت الأيام واذا بخلف كان قد قضى أربعة وثلاثين عاماً بينهم حتى اصبح يماثلهم في كل شيء لابل ان أولاده اصبحوا اوكرانيين أصلاً حتى باتوا سنداً يؤازرونه في كل ضيق.

يقول الشاعر صالح بن عبد القدوس:

فدَعِ الصِّبا فـلـــقدْ عـــداكَ زمانُهُ

وازهَدْ فعُـــمرُكَ مرِّ منهُ الأطيَـبُ

ذهبَ الشبابُ فـما له مـــنْ عودةٍ

وأتَى المشيبُ فأينَ مـــنهُ المَهربُ

دَعْ عنكَ ما قد كانَ في زمنِ الصِّبا

واذكُر ذنوبَكَ وابكها يا مـــذنب

لم ينسَـهُ الملَكـانِ حيـنَ نسيتَـهُ

بـل أثبتـــاهُ وأنـتَ لاهٍ تلعـبُ

والرُّوحُ فيكَ وديـــعـةٌ أودعتَهـا

ستَردُّها بالرغمِ منكَ وتُسلَـــبُ

والليلُ فاعلـمْ والنهـــارُ كلاهمـا

أنفاسُنـا فيهـا تُـعـدٌّ وتُحســبُ

وجميعُ مـا خلَّفتَـهُ وجـــمعتَـهُ

حقاً يَقيناً بـعـدَ موتِـكَ ينهـــب

ثم يقول:

لا تأمنن الدهر الصـــروف فإنه

لا زال قـــدماً للرحال يـــؤذبُ

وعواقب الأيام فـي غصاتـــها

مضـض يذلُّ به الأعزُّ الأنـجب

فعليك تقـوى الله فالزمـها تفزْ

إنَّ التّقِيَّ هـو البهيُّ الأَهْيَـــبُ

واعْمَلْ لطـاعته تَنَلْ مِنْهُ الرِّضا

إنَّ المطيع له لديه لـمـــقرب

واقْنَعْ ففي بَعضِ القناعَةِ رَاحَةُ

واليَأْسُ ممّا فـات فهو المَطْلَبُ

وَتَوَقَّ مـــن غَدْرِ النِّساءِ خِيَانَةً

فجميعهن مكـــائد لكّ تنصب

لا تأمن الانثى حياتك إنـــها

كالأُفْعُوانِ يُـــراعُ منه الأَنْيُبُ

لا تأمن الانثى زمـــانك كلـــه

يوما وَلَوْ حَـــلَفْتْ يَمينا تَكْذِبُ

تُغري بطـــيب حَديْثِها وَكَلامِها

وإذا سطت فهي الثقيل الأشطب

وأبداً عَدُوَّكَ بـــالتَّحِيَّةِ لا تكنْ

مِنْهُ زمـــــانَك خائـفا تترقَّبُ

واحْزرْهُ إنْ لاقيتـــــه متبـسماً

فاللَّيْثُ يَبْدو نابُه إذْ يَغْضَـــبُ

وإذا العدو وإن تقـــادمَ عهده

فالحقْدُ باقٍ في الصُّدورِ مُغَيَّبُ

وإذا الصديق رأيته متـــــملقاً

فهو العدوُّ وحقُّـــــه يُتَجنَّبُ

لا خير في ودِّ امرءٍ متمـــــلقٍ

حلـو اللسان وقلبه يتلهـــــب

يلقاك يحلف أنه بك واثـــقٌ

وإذا توارى عنك فهو العَقْرَبُ

لا أُجَمل الصورة على هذا النحو، فلا يوجد بلد أو مجتمع ما يخلو من الأشرار والدونيين الذي قد تصطدم بهم في أوقاتٍ شتى وربما نتعرض للنصب والاحتيال

والابتزاز، فهو مجتمع فيه كل شيء ويبقى الانسان واحد لكن يختلف في الثقافة والوعي.

يجلس خلف في بعض الأحيان في مقهى ما على رصيف أحد الشوارع في المدينة وينظر الى الناس والطريف في الأمر أنه كلما ضَرته الحياة يبقى مستكشفاً صغيرا مثل أي طفل، ثم ان الحياة علمته الصبر.

قالت أمراه من العرب:

أيُّها الانسان صبرا
إنَّ بعد العسر يسرا
فاشرب الصبرَ وإن كا
نَ من المُرِّ أمَرّا

في بعض الأحيان يجلس خلف وحيداً متأملاً أحداث كثيرة مرت وبسرعة البرق وكأنها فلم سينمائي لم تكن تخلو من المفاجئات، والتقلبات، والتغيير، مثل إنهيار الاتحاد السوفيتي، وإنقلاب الجبهة الإسلامية، وموت

الأعزاء، وبعض الأحيان يسرح في خيالاته ويتأسف على حال الوطن العربي، وإستغلال الحركات الإسلامية على إختلاف توجهاتهم ومللهم، وهم يستغلون الدين لخداع الناس البسطاء وإذكاء الإرهاب والتفرقة، وربما كثير من الحركات لها أجندات وتعمل لصالح الغير، مما جعل بلداننا العربية متأخرة ومتناحرة بل قل متحاربة. تعلم خلف وغيره من أستوطن بلاد الافرنج كما يقال أن الدين له تأثير كبير في حياة الانسان، وفي اعداد الشخصية وربما تكوينها وصياغتها فهو الفاصل بين الشر والخير والانسان بلا دين هو بلا هوية أو جسد بلا روح وعلى أية حال يبقى موضوع الدين موضوعاً شائكاً ومعقداً خاصةً عند العرب.

الشعب الاوكراني مر بظروف قاسية ومعقدة خاصةً اثناء الحرب العالمية الثانية حين تعرضت البلاد الى غزو هتلر لها، ومما تجدر الإشارة أنهم اثر ذلك، ربما تحرروا من عقد كثيرة مثل الجنس، والدين، ويمكن القول أنهم أعادوا صياغة المفاهيم بشكل يؤدي الى التصالح مع

الاخر، ثم مع الذات، ولكن هذا لم يكن كافياً بل لم يلتفتوا الى الوراء، أو الى الأحقاد وعلى أية حال مثلت تجربة الاختلاط ما بين الشعوب أحد التجارب المهمة في طريق الإنسانية على نحو من الانحاء، والحقيقة هي احدى وسائل الأممية الى دعت اليها كل الأديان وتصارعت عليها الأمم وربما هي ما قدح القادحين وما شكك بها المتشككون، ثم انها كانت الدعوة التي تبنتها افكاراً عدة واشكالاً شتى من الأحزاب في العالم، وفي نهاية المطاف، أو زبدة القول أن الكل من طبقة واحدة هي من خلق الله.

يقول الله في كتابه العزيز:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . سورة الروم، الآية: ٢٠.

يقول الشاعر ابن عمران:

أفٍ لدنيا قـــد شغفنا بـها

جهلاً وعقـــلاً للهوى مُتبعُ

فتانهُ تخـــدع طلابـــــها

فلا تكـن ممن بها يتخدع

أضغاثُ احلامٍ إذا حصلت

أو كوميض البرق مهما لمع

وقال الامام علي بن ابي طالب (ع)

ذهبَ الـــذين علـــيهمُ وجْدي

وبقـــيتُ بعدَ فراقِهم وحـدي

من كانَ بينكَ فـي الترابِ وبينَهُ

شِبران فهْوَ بـغـــــــاية البُعْدِ

لو بُعثرتْ للمـــرءِ أَطباقُ الثرى

لم يُعْرَفِ المولى مـن العبْـــدِ

مـن كان لا يطَأُ الـترابَ برجْلِه

يَطَأ الترابَ بنـــــــاعم الخَدِّ

***

[٢٩]
الخاتمة

الحقيقة ما دعاني لان اكتب عن شخصية خلف شيئاً أخر غير الذي تحدثت عنه في المقدمة، حيث أنا كنت أتحدث عن أجيالٍ من الطلبة القادمين الى الأتحاد السوفيتي بتجربته الغنية بصورة خلف، وربما المسكوت عنه، أو قد يعني إماطة اللثام عنهم. فلكل شخص قادم من عالم أخر يكاد يختلف عنه في الشكل، لكن المضمون إنساني بحت، وفي كل حكاية ربما مجموعة من الأسرار وقصص شتى، وربما بعضها متشابه وبعضها الاخر مختلف، ولكن القاسم المشترك الذي جمع أغلب الطلبة القادمين الى الاتحاد السوفيتي هو أن جلهم من الطبقة الوسطى، بل قل اغلبهم من طبقة الكادحين، والفلاحين الذين يمتلؤون طموحاً، ورغبةً، وعنداً في ان يكونوا ذا شأنٍ في المستقبل رغم حقد الحاقدين وعند المعاندين، الذين صوروا الاتحاد السوفيتي، والدول الاشتراكية، عكس صورتها

الحقيقية، وزينوا صوراً عن مفاتن الدول الغربية، ما جعلهم يتفوقون عليها بنظرياتهم وحقدهم واستغلالهم لثرواتنا، وإستعمارهم لبلداننا حتى انهم حولونا الى قطيع يتبع أفكارهم التي تزهو في الصورة، لكنها تضمر أشياء شتى من العداء، وعلى أية حال، فالغربة تقسو في بعض الاحايين، وفي بعض الأحيان تفتح أبواباً كثيرة كانت تبدو موصده وتتحول الى قصة نجاح، والحقيقة أنا كنت فرحاً حين كنت أتحدث عن أشخاص مهمين في حياة خلف مثل فضل المولى ولاريسا وطارق والدكتور فارس وسواهم من الذين نحتوا في ذاكرة الدكتور خلف وشماً دائما وهذا الوشم يمثل طينة خلف النقية. ربما أنا تعاملت بصدق مع خلف الصديق والانسان وتعاطفت مع حياته التي لا تخلوا من صعوبات وكفاح ومثابرة ومكابرة حاول كتمها أو التستر عليها، ولم يبح بها كلها لكنه قضمها من أطرافها عن قرب، ولهذا لم أسمها مذكرات، بل ذكريات بعضها موجع وبعضها لطيف وأجملها كانت عندما تضيق وتفرج تالياً.

يقول الشافعي:

ولرُبَّ نازلةٍ يـــــضيق بها الفتى

ذرعاً وعـــــند الله منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فُرجت وكان يظنـــــها لا تُفرجُ

شخصية الدكتور خلف الذي كان كل طموحة أن يكون مهندساً ميكانيكاً يعود بشهادته الى وطنه السودان الذي عانى ما عانى من ظلم المستبدين والطغاة، الناقمون التائهون في ظل هوى الغير، ويقدم شيئاً لوطنه الذي طالما حلم بتطوره وتقدمه حاله حال الحالمين من الطلاب العرب والأجانب من دول مثل أمريكا اللاتينية وغيرها من الدول التي عانت وتعاني من إستبداد المستبدين والدكتاتورين، وخلف من الطلاب الذين اصطدموا بالأنظمة السياسية الدكتاتورية أو بالإسلام السياسي، والسلطات المتنوعة التي تسلطت على رقاب الشعوب وحولت البلاد الى مبغى ودفع أثمان البغي العباد الأبرياء.

كثيرة هي الهموم، ولعل أحدها انقطاع الفرد عن وطنه وخلانه فترة طويلة، والشدة عندما يعود يشعر في شدة أكبر مما يتصوره حلمه فلا هو يستطيع التأقلم على الحدث الجديد واقعه القديم، ولا هو يستطيع أن يترك واقعاً اخراً أحدث أضطراباً في كيانه وواقعاً اخراً تعود عليه متمتعا فيه بقسط من الحرية والأنفتاح والأطلاع وممارسة ثقافة جديدة لم تكن في الحسبان.

قال الطريفي:

أرى وطني كعشٍ لي وَكّنٍ

اسامر عنه في طلب المعاشِ

ولولا أنّ كسب القوتِ فرضُ

لما برحَ الفراخ مِن العشاشِ

وقال بعضهم في السفر:

يا نفس ويحك في التغرُّب ذلةُ

فتجرَّعي كأس الأذى وهوانِ

وإذا نزلت بدار قومٍ دارهم

فلهم عليك تعزُّر الأوطانِ

ثم ان الزواج من أجنبية هو حكاية أخرى تحمل في طياتها أشكالاً متعددة من الأوجه والاحتمالات فبعضهم تَوَفقَ ايما توفيق، وكانت له سنداً قوياً وضحت من أجل الزوج الحبيب وغادرت وطنها وتأقلمت مع وطن الحبيب. ومنهم من إستقر في وطن المحبوبة ونما غرسه فيها وتفرع أغصاناً وثماره أصبحت أجنبية. وقسم لم يتوفق وافترقا وعلى أية حال الموضوع برمته يحمل في طياته الكثير كون الأختلاف ليس فقط في الثقافة بل في الدين والشكل والعادات والتقاليد وسواها من الأختلافات رغم رباط الإنسانية الذي يجمع البشر.

يقول نزار قباني:

أيتها الأنثى التي في صوتها
تمتزج الفضة... بالنبيذ... بالأمطار
ومن مرايا ركبتيها يطلع النهار
ويستعد العمر للإبحار
أيتها الأنثى التي

يختلط البحر بعينيها مع الزيتون

يا وردتي

ونجمتي

وتاج رأسي

ربما أكون

مشاغبا... أو فوضوي الفكر

أو مجنون

إن كنت مجنونا... وهذا ممكن

فأنت يا سيدتي

مسؤولة عن ذلك الجنون

أو كنت ملعونا وهذا ممكن

فكل من يمارس الحب بلا إجازة

في العالم الثالث

يا سيدتي ملعون

شخصية لاريسا يفكينفنه زوجة الدكتور خلف مثالاً من ذلك تستحق الاحترام والاشادة والكتابة عنها، انها نموذج من الإخلاص والكفاح والصبر حين وقفت الى

جانب زوجها الأجنبي القروي الريفي القادم من السودان في شدته التي تكررت كل حين وربما فرادتها في صبرها وتحملها وحبها لخلف الانسان الذي عرفته على حقيقته.

أما شخصية الدكتور فارس عبد الكريم، الشخصية السورية العربية المترفة، والغنية، وزميل الدراسة، تجده يقف الى جانب صديقه في السراء والضراء وكلما ضاق الحال بخلف تجده يؤازر خلف مثل عمود يتكئ عليه خلف مطمئناً رغم تعدد الكبوات، وربما هذه العلاقة الفريدة تكشف عن خبايا أخرى، هي طينة فارس النقية وهو يحول الغربة الى قرابة ولأنه تشابه مع خلف في أفكار عدة ساهمت في جعل الصداقة تهيمن على كل افعالهما وكما قالو المرءُ كثير بأخيه.

يقول الاحنف بن قيس:

خَيرُ الإخوان مَن إذا استغنيتَ عَنهُ لَم يَزدكَ إلا في المودة، وإنْ احتجتَ إليه لم يُنقِصكَ منها. وان كوثرت عضدكَ. وان استرفدت رفدك.

وقال احمد بن أبان:

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخٍ

وكنت أجازيه فأين التـــــــفاضل

ولكن أداويه فان صـح ســـــــرني

وان هو أعيا كان فيه تـــــــحـامل

أما اخوة خلف الذين يمثلون نموذجاً إستثنائياً وهم ينصحون ويدفعون بخلف للعودة الى مواقع الدراسة خوفاً عليه من بطش النظام الذي لايميز بين النافع والضار سوى التسلط والاحتفاظ بكرسي الحكم ولو بالدم والجلوس على الجماجم.

يقول أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماًأراد الحياة

فلا بـد ان يستجيب القدر

ولابـد لليـــــل ان ينجلي

ولابـد للقيـــــد ان بنكسر

وما قام به الأخ الكبير فضل المولى في المطار وهو يقدم خـاتم زواجـه وعشـرين دولاراً مثـاراً للأعجـاب ووسـيلة

للتفاخر والاعتزاز به. وقصة رحيله بمرض شكل فاجعة لخلف بفقدان أخيه الكبير العزيز الثاني والصديق.

وقال ابن عبدون الفهري:

الدهر يفجع بعد العـــين بالأثرِ

فما البكاء على الأشباح والصورِ

فلا يغرنك من دنياك نومتـــــها

فما صناعة عينيها ســـوى السهرِ

امـا رفيـق الـدرب الأخ الأصـغر زميـل الدراسـة، ورفيـق الطفولة، ورحله الغربة الذي تقاسم معه هموماً متعددة من ضيق الحال، وعسرة، رحل مبكراً ليصدم خلف بهذا الحدث الأليم.

قال مصعب بن عبد الله الزبيدي:

أتدري لِمن تبكي العيون الذوارفُ

وينهل منها واكـــــف ثم واكفُ

نعم لامرئٍ لم يبق فـي الناس مثله

مفيد لعلمٍ أو صـــديقُ مـــلاطفُ

ربما لو أسعفت الذاكرة خلف، وروى كل ما في جعبته، لأماط اللثام عن كثير من القصص، والحكايات، والروايات، عن اشخاص كثر مروا بحياته، بعضهم ترك اثراً محفوراً، والبعض الأخر مجرد عابر سبيل، وحسب اعتقادي أنه تجمل كثيراً بعدم الإفصاح وربما التستر لأنه لا يريد التدخل في شؤون الاخرين، رغم تعلق الامر به وبحياته، وهو لم يكن بهذه السهولة في أخذ نصيبه من الحياة بقوة وربما بوقاحة لكنه فضل عدم البوح بالذكريات وجعلها مستورة كما يقال أو ربما أنه كان كتوماً أو قد يكون تورط معي بهذا الموضوع برمته، ولم يكن جدياً حينا بالموضوع زد على ذلك لم يكن يتوقع جديتي وإصراري على هذا الموضوع.

ربما أنا جملت شخصية خلف كثيراً وأود ان أقول: بقدر ما هو طيب لكنه لا يخلو من دهاء، وكل انسان يرى نوع من الكمال في ذاته فهو لا يخلو من وقاحة، وجرأة، في إقتحام الدوائر المغلقة، فهو عصبي المزاج وإنفعالي في داخله وهو في كثير من الأحيان يعيش بين

شخصيتين، الشخصية القادمة من ريف السودان والشخص الأوربي الاشتراكي المتحضر يحاول أن يصارع الظروف ويقهرها ورغم ذلك فانه انسان عصامي لا يستسلم ولا يجزع لأي ظروف مهما كان الظرف عصيباً. يفكر بهدوء وينطلق سريعاً نحو الهدف يخطط دون أن يعلن عن نواياه، أنه شخصية قيادية له تأثير على السودانيين وعلى عدد غير قليل من العرب، إجتماعي، يبحث عن علاقات وصداقات دائمة واسع المعرفة، سياسي لم ينقطع عن أخبار السودان وتحليل أوضاعه السياسية رغم بعده عن الوطن، وله نظره خاصه في كثير من الأمور، أما في النساء ظل كتوماً لأنه لم يكم سهلاً في هذا المجال وربما من المؤكد انه كان زيراً. تحتفظ مدينة اوديسا بذكريات كثيرة لأجيال من الأجانب درست في جامعاتها التي ناهزت العشرين إضافة الى التجار والبحارة والعسكر القادمين من مدن شتى ولكل منهم حكاية وأثر ذو طعم ونكهة مختلفة عن الأخرى.

يقول الشاعر:

وما كُل من أومى الـــى العز نالهُ

ودُون العُلا ضرب يدمى النواصيا

وقال المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المـكارم

وتعظم في عين الصغير صغـارها

وتصغر في عين العظيم العظـائم

***

دار الفرات للثقافة والإعلام – بابل – العراق

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٤٦٦) لسنة ٢٠١٩م

Al-Furat House for Education and Information

Iraq – Babylon